مؤتمــر وادي الحجيـــر

وآثــــــارُه

د. منذر محمود جابر

الفهرست

الفصل الأول

الحالة السياسية في جبل عامل أثناء العهدين التركي والفرنسي

أولاً: نظرة في أوضاع جبل عامل:

١- التسمية والحدود..

٢- السكّان...

٣- الحالة الاجتماعية..

٤- الحالة الاقتصادية...

ثانياً: موقف جبل عامل من الحكم التركي:

- موقف جبل عامل من الثورة العربية..................................

ثالثاً: الحالة السياسية في جبل عامل أثناء الاحتلال الفرنسي:

١- الحكومات المحلية في جبل عامل.................................

٢- الخلافات على زعامة جبل عامل..................................

٣- الموقف من الوحدة السورية.......................................

٤- مساهمة جبل عامل في المؤتمر السوري..........................

٥- الموقف أمام لجنة كينغ كراين.....................................

٦- الجمعيات الفرنسية...

٧- موقف المسيحيين في جبل عامل من اللجنة الأميركية.........

رابعاً: العصابات في جبل عامل:

١- عصابات الفرّاريين , المُجنّدين , البدو.........................

٢- العصابات التي نشأت مع الاحتلال..........................

أ- العصابات الوطنية المناهضة للاحتلال...................

١- نشوؤها وتطويرها....................................

٢- دور حكومة دمشق في أعمال العصابات.............

٣- أهم العصابات الوطنية..............................

٤- نماذج من أعمال العصابات الوطنية..................

٥- موقف الجماهير من العصابات الوطنية..............

ب- العصابات المسيحية الموالية لفرنسا

١- نشوؤها...

٢- نماذج من أعمال هذه العصابات...................

ت-عصابات السلب والنهب................................

١- نماذج من أعمال هذه العصابات.....................

الفصل الثاني

أولاً: ظروف وأسباب انعقاد مؤتمر الحجير

١- تحرُّج الوضع السياسي في جبل عامل......................

٢- تأييد المسيحيين المكثّف لفرنسا............................
٣- تزايد التحركات الفرنسية.................................
أ- العرائض وجمع التواقيع.................................
ب-الصراع الإقطاعي على السلطة..........................
ت-موقف الملك فيصل وأثره..............................
٤- ازدياد فاعلية العصابات..................................
أ- تطور المفهوم السياسي عند العصابات...................
ب-التطور العسكري عند العصابات.........................
ت-الفوضى السياسية عند بعض العصابات...................
٥- الظروف الاقتصادية عشية مؤتمر وادي الحجير.............
٦- الموقف الشعبي عشية مؤتمر وادي الحجير.................
ثانياً: أسباب انعقاد مؤتمر وادي الحجير.........................
أ- العلاقة بين متنفذي جبل عامل وبين العصابات.............
ب-طلب حكومة دمشق من جبل عامل تحديد موقفه............
ت-طبيعة العلاقات الاجتماعية في جبل عامل.................

الفصل الثالث

وقائع مؤتمر وادي الحجير

١- لماذا عُقد المؤتمر في وادي الحجير.......................

٢- المشتركون في المؤتمر..............................
٣- وقائع المؤتمر......................................
٤- مقررات المؤتمر.....................................
أ- إرسال وفد إلى الشام................................
ب-مقررات تتعلق بالوضع السياسي لجبل عامل..........
ت-المقررات المتعلقة بالوضع الداخلي...................
٥- الجو العام داخل المؤتمر............................
٦- وفد المؤتمر في دمشق...............................
٧- موقف المسيحيين من المؤتمر.........................

الفصل الرابع

نتائج المؤتمر والأوضاع في جبل عامل بعده

أولاً: النتائج المباشرة للمؤتمر:

١- تمهيد...
٢- حادثة عين إبل......................................
أ- أسباب حادثة عين إبل..............................
ب-موقف العصابات الوطنية من أهل عين إبل.........
٣- الهجوم على عين إبل................................
أ- اجتماع بركة كونين.................................
ب-انطلاقة الهجوم.....................................

٤- نتائج الهجوم على عين إبل.........................

أ- الخسائر المادية..............................

ب-نجاح الخطة الفرنسية...........................

ت-الحملة الفرنسية...............................

ث-أعمال الحملة الفرنسية..........................

ج- الغرامة الحربية...............................

ح- كيف انتهت الحملة الفرنسية.......................

ثانياً: الأوضاع في جبل عامل بعد مؤتمر الحجير:

١- الأوضاع السياسية:

أ- ضم جبل عامل إلى دولة لبنان الكبير, وأثره.......

ب-حرمان جبل عامل من ممارسة حقوقه السياسية...

ت-حماية جبل عامل من الوقوع في أيدي الصهاينة.....

٢- الأوضاع الاقتصادية:

أ- الضرائب..

ب-تدهور الزراعة..................................

ت-تدهور النقد الورقي السوري.......................

٣- الأوضاع الاجتماعية:

أ- إحكام سيطرة المتنفذين............................

ب-النضال الفلاحي.................................

ت–الهجرة..

خلاصة وتقويم:..

المقدمة

انتهت المفاوضات التي جرت بين فرنسا وإنكلترا أثناء الحرب العالمية الأولى إلى اتفاقية سايكس بيكو (أيار ١٩١٦) ، التي كرّست نفوذ الدولتين في منطقة الشرق العربي المنفصلة عن الامبراطورية العثمانية ، ووضعت الأساس الأولي لإقرار الاحتلال المباشر.هذا الاحتلال الذي كرّسه رسمياً تحت اسم (انتداب) (١) مؤتمر سان ريمو(١٤ تموز ١٩٢٠) . وفعليّاً الاحتلال العسكري الفرنسي لسوريا بعد معركة ميسلون التي أنهت الحكم الاستقلالي العربي ، ووضعت السلطة المطلقة في أيدي المفوض السامي الفرنسي، وأخضعت البلاد إلى سلطات الاحتكار الفرنسية.

أول عمل قامت به سلطات الاحتلال تجزئة سورية إلى دويلات . فلم تكد تمضي أسابيع على بدء الاحتلال حتى أعلن غورو قيام دولة لبنان

---

(١) على الرغم من الإدّعاء بأن الانتداب وصاية اقتضتها ضرورة التمدين والإنقاذ من التأخر , فإن القرائن تنفي بشدة هذا الزعم . يقول الكاتب هنري سيمون ، إن ترك سورية والتنازل عن انتدابنا فيها يعني أن نترك للغير سوقاً اقتصادية تكاد تتفتح, حيث تجد تجارتنا وصناعتنا ورساملينا أسواقاً هامة لها . بدر الدين السباعي, أضواء على الرسمال الأجنبي في سوريا, دمشق, دار الجماهير, ٨٣/١٩٦٧. عن مجلة آسيا الفرنسية , عدد آذار ١٩٢٢/ ١١٦.

الكبير, بعد أن ضم إليه مساحة واسعة من بلاد الشام . وبعد أسبوع من ذلك أعلن عن قيام دولة حلب. وبعد أسبوعين أقام دولة العلويين التي عيّن لها حاكماً فرنسياً . وأخيراً أعلن عن قيام حكومة مستقلة إدارياً في جبل الدروز.

والسؤال الآن : ما كان ردُّ الفعل الشعبي اتجاه الاحتلال ، واتجــاه محاولات التشتيت الفرنسية؟

إن ما يهمنا من طرح هذا السؤال على وجه الخصوص معرفة الموقف في جبل عامل . هذا الموقف لم يخرج عن السياق الذي اتخذته أغلب المناطق السورية في أعنف أشكال المواجهة المسلّحة التي قامت بها العصابات في مناطق مختلفة من سوريا ولبنان . فقد كانت العصابات الموالية للحكومة العربية ناشطة في جبل عامل ، لدرجة أنها استطاعت إقفال هذه المنطقة في وجه الموظفين الفرنسيين والقوات الفرنسية ما يزيد عن السنة. ولكن ما يجلو لنا موقف جبل عامل على حقيقته هو مؤتمر وادي الحجير ، الذي يعتبر الأول من نوعه في تاريخ المنطقة ، لأنه انعقد تحت شعار سياسي بعيداً عن الولاءات العائلية والعشائرية أو الزعامات المحليّة. وقد أفـرز مقـرّرات تتفق مع التطلع السياسي للعامليين في تلك الفترة ، قضت بتأييد مقررات المؤتمر السوري المنعقد في ٧ آذار ١٩٢٠.

من هنا كانت قيمة دراسة هذا الحدث ، بوصفه ظاهرة سابقة فريدة في التاريخ السياسي لجبل عامل. خاصة وأنه كان لهذا المؤتمر ما بعده . إذ

ترددت أصداء نتائجه في مختلف جوانب الحياة آنذاك ، من سياسية واقتصادية واجتماعية .

والذي يزيد من أهمية دراسة هذا الحدث ، نظرة البعض له على أنه تجمع طائفي شيعي . فكرة القضاء على العنصر المسيحي في جبل عامل هي غايته الأولى والأخيرة . وما المقرّرات التي صدرت عنه إلا شعاراً أخفى النوايا الحقيقية للمؤتمرين . ونظرة آخرين له بأنه نتاج للعلاقات الاجتماعية التي كانت تتفاعل داخل جبل عامل .

لم تكن الطريق أمام إعداد هذه الرسالة مُعبّدة ، بل اكتنفتها صعوبات كبيرة . لأن المصادر الأساسية التي تحدثت عن المؤتمر وظروف انعقاده مطويّة غير منشورة ، خشية ما يمكن أن تسببه من إحراج لكثير من الذين شاركوا في أحداث تلك الفترة . يقول الشيخ أحمد عارف الزين ، صاحب مجلة العرفان ، جواباً عن سؤال يتعلّق بسبب عدم نشر السيد عبد الحسين شرف الدين مذكراته عن سنة العشرين ، سنة انعقاد المؤتمر : " **إن نشر المذكرات يوجب فضيحة جماعة كثيرة من أصحاب المبادئ الملتوية ، وذلك يغضب الأحياء منهم ويغضب أبناء الأموات . ذلك ما منع الشيخ سليمان ظاهر من نشر مذكراته (وعند جهينة الخبر اليقين) ، ومنعنا من إصدار (شهران في السجن) على أثر خروجنا منه سنة ١٩٣٦ . وقد**

أعلنّا عنه ومواده جاهزة . ولا تقتصر على حوادث تلك السنة بل على جميع الأحداث التي مرت من سنة ١٩١٢" (١).

هكذا فإن المؤلفات والمنشورات التي تبحث الموضوع ، على النحو الذي أردته من الاتساع والشمول مفقود. ماخلا بضع مقالات للشيخ أحمد رضا بعنوان (مذكرات للتاريخ) في مجلة العرفان بالإضافة إلى أبحاث الأخرى تطرّقتْ إليها بعض الكتب في بعض الفصول ، وأخبار ساقتها جريدة (البشير) .

وقد انعكست ضآلة المراجع بشكل بارز على الاتجاهات التي تداخلت المؤتمرين ,ومقررات مؤتمر الحجير. حيث لم أعثر على ما يثبتها بنصها . وأمكننا تلافيه إلى حد كبير، بفضل عدد ممن عاصروا المؤتمر ورسموا لي معالم وحدوداً استطعت الوقوف عليها، لاستجلاء الغوامض وتفسير بعض الأحداث والمواقف . وكان بودّي الاطلاع على ما تحويه المكتبة الظاهرية بدمشق علّني أجد فيها ما يكشف لي ما أغفلته المراجع المتوافرة لديّ ، لأن خزائن تلك المكتبة تحوي جزئيات وتفاصيل دقيقة عن الموقف في الأقطار السورية .

---

(١) مجلة العرفان, م٣٣, ج٣/٣٤٢.

قسمتُ الدراسة إلى أربعة فصول . تناول الفصل الأول البحث في الأوضاع السياسية والاجتماعية لجبل عامل إبان الاحتلال التركي والاحتلال الفرنسي. وتناول الفصل الثاني البحث في ظروف واسباب انعقاد مؤتمر الحجير. وفي الثالث الحديث عن المؤتمر ووقائعه . وفي الرابع بحث في نتائج مؤتمر الحجير. وأفردتُ في نهاية الرسالة ملحقاً يتناول تراجم بعض الذين حضروا المؤتمر.

وإذا كانت هذه الدراسة قد اتخذت من حدثٍ في جبل عامل مجالاً لبحثها , فلا يعني أن هذا التخصيص يضعف من عمومياتها . لأن جبل عامل لم يكن أكثر من بيئة ، عملَ الشعب فيها تجاه الاحتلال الفرنسي عمله في بيئات أخرى . ومهما تختلف الأسماء والأشخاص والأمكنة ، فإن الخطوط الكبرى لمواجهة المحتلين وخططهم وسياساتهم تبقى تقريباً واحدة في البيئات التي تتشابه أوضاعها . من هنا كانت فائدة هذه الدراسة حتى بالنسبة إلى مناطق أخرى.

إنني إذ أقدمُ هذه الدراسة المتواضعة التي لا تعدو أن تكون محاولة دراسة تاريخية لحدث سياسي له آثاره ونتائجه السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وانطلاقة لدراسة أعمق ، أرجو أن أكون قد قمت ببعض ما وجب تجاه وطني وشعبي .

―――

الفصل الأول

أولاً: الحالة السياسية في جبل عامل أثناء العهدين التركي والفرنسي

يحسن بنا قبل الحديث عن الموقف السياسي في جبل عامل , أثناء الاحتلال التركي والاحتلال الفرنسي ، أن نُعرّف هذه المنطقة تعريفاً يوضح لنا قسماتها وسماتها العامة

١- التسمية والحدود:

يُجمع المؤرخون على أن هذه التسمية **(جبل عامل)** تعود إلى قبيلة عاملة بن سبأ اليمنية . "هذه القبيلة التي خرجت إلى الشام عند سيل العرم ، ونزلوا بالقرب من دمشق ، في جبل هناك يُعرف بجبل عاملة" (١).

ويقول الهمذاني في صفة جزيرة العرب : "ديار عاملة مجاورة للأردن ، وجبل عامل مشرف على عكا من قبل البحر، ويُطلُّ على الأردن" . ويقول أيضاً:" وأما عاملة فجبلها مشرف على طبريا إلى نحو البحر" (٢).

ويطلَق على جبل عامل اسم بلاد بشارة . وفي هذه التسمية أقوال متضاربة . فمنهم قال إنه الأمير بشارة بن معن . وقد نُقض هذا الرأي ، إذ

١-علي الزين: مع التاريخ العاملي, صيدا ١٩٥٤/٣٥.
٢-نفسه/ ٣٦.

يلم يُعرف من سلالة أمراء آل معن من اسمه بشارة . ومنهم من قال إنه بشارة بن مقبل القحطاني... ولم نرَ لهذا الاسم ذكراً في ما لدينا من المؤلفات التاريخية . والمعوّل عليه والأقرب إلى الصحة ، إنه الأمير حسام الدين بشارة بن أسد الدين بن مهلهل... بن سلامة العاملي . هكذا ساق نسبه ابن فتحون في تاريخه.(١)

يرى الشيخ أحمد رضا ، أن هذه التسمية ترجع إلى الفترة التي دخلت فيها بلاد الشام في حوزة الأتراك . أما الشيخ علي الزين فيرى أنها أُطلقت على هذه المنطقة من بلاد الشام منذ سادها بنو بشارة العامليون في القرن الثامن والتاسع للهجرة (٢).

وكما عُرف جبل عامل ببلاد بشارة ، عُرف كذلك ببلاد المتاولة . فقد أطلق هذا اللقب على شيعة هذه الديار . غير أن اللبنانيين في الشمال كانوا يقولون (متاولة) ، كما في تاريخ الدويهي الشهابي . والفلسطينيون في الجنوب كانوا يقولون (بني متوال) كما في تاريخ الصفدي(٣).

أما فيما يتعلق بحدود جبل عامل , فالآراء متقاربة بين المؤرخين . فمحمد جابر يسوق مايلي : " **وفي تحديدها خلاف لا حاجة للإسهاب فيه.**

١-محمد جابر آل صفا: تاريخ جبل عامل, بيروت , دار متن اللغة , د.ت/٢٥.
٢-علي الزين: المرجع السابق / ٣٨.
٣- نفسه / ٤٠.

والمُعوّل عليه في الوقت الحاضر أنها تحد من نهر القرن بالقرب من طرشيحا وضواحي عكا جنوب قرية الزيب من أعمال فلسطين جنوباً ، إلى نهر الأولي المعروف قديماً بنهر الفراديس ، الفاصل مجراه بين مقاطعتي الشوف وجزين قرب صيدا شمالاً. ومن شواطئ البحر المتوسط غرباً إلى واحة الحولة والنميط . إلى نهر الغجر ووادي التيم شرقاً. وقد أُلحق قسم وافر منها بجبل لبنان ، كجزين ومشغرة وجبل الريحان " (١) . وحسب هذه الحدود تكون مساحة جبل عامل ثلاثة آلاف كلم^2.

ويعطينا الدكتور كاظم الأمين حدوداً لا تختلف كثيراً عن الحدود التي أعطاها محمد جابر ، مع اختلاف بسيط من حيث المساحة ، فيقول :

"وتكون مساحة جبل عامل ٣٢٠٠ كلم^2 بطول ٨ كلم وعرض ٤٠ كلم^2". (٢)

ويرسم الشيخ علي الزين تحديداً لجبل عامل ، لا يشكل من حيث إطاره العام خلافاً مع التحديدات السابقة . اللهم إلا من حيث إدخال قرى وإخراج أخرى في الحدود الجنوبية والشمالية الشرقية لهذا الجبل ، أما من حيث المساحة ، فيتفق مع ما سبق ، أي ٣٠٠٠ كلم^2. (٣)

١ـ محمد جابر: المرجع السابق , ص ٢٤.

٢ـ كاظم الأمين, العرفان, أطروحة دكتوراة جامعة, بيروت ١٩٦٧.

٣ـ للاطلاع : مع التاريخ العاملي للشيخ علي الزين .

نلاحظ أن الاختلاف بين هذه التحديدات لجبل عامل غير ذات بال، وهذا ما ظهر في تقارب أرقام المساحات التي يسوقها كل من محمد جابر آل صفا ، والدكتور كاظم الأمين ، والشيخ علي الزين.

٢ـ السكّان: وهو يرتكز على الإحصاءات التقريبية.لأن الإحصاءات الدقيقة لسكان الجبل غير متوفرة . يقول صفا: "**عدد نفوسه ماية وخمسون ألف نسمة يدينون بالإسلام على مذهب الشيعة الإمامية ، بينهم قسم قليل من السُّنيين في الثغور ، وآخر من النصارى في الداخل**" (١).

ونجد في مجلة العرفان إحصاءً أكثر تفصيلاً يعود لسنة ١٩٢١ هو التالي:

الإسلام الشيعة : ٦٣٠٠٠
الإسلام السنة : ١٣٣٩
الدرزو : ٣٥٠٠
الموارنة : ١٧٥٠٠
الأرثوذكس : ٥٦٧٣
الروم الكاُوليك : ١١٢٤
البروتستانت : ١٤٣٤
اليهود : ٦٢٩

١- محمد جابر, المرجع السابق /٢٤.

المجموع : ١٠٦٢٥٧ (١)

والفرق في عدد السكان بين ما أورده محمد جابر وبين ما جاء في العرفان عائد إلى الفترة الزمنية التي تكلّم عنها كل منهما . فإحصاء العرفان عائد إلى السنة ١٩٢١ . وأما إحصاء محمد جابر فيعود إلى الأربعينات, تاريخ وضع الكتاب . ولكن العدد الحالي لسكان جبل عامل يزيد عن ضعفي ما يورده محمد جابر ، لأن عدد الناخبين المسجلين وحده يبلغ الماية والخمسين ألف نسمة . يتوزّع هؤلاء السكان على عدد كبير من المدن والقرى أهمها : صيدا ، صور ، النبطية ، بنت جبيل ، جزين ، الخيام وغيرها.

الحالة الاجتماعية : خضع جبل عامل في نظامه الاجتماعي للنظام الإقطاعي، الذي كان يسود المقاطعات والأراضي الخاضعة للدولة العثمانية. ولم يكن هذا النظام يختلف بين عهد آخر، لأن نظام الإقطاع العثماني كان فترة تقليد واستمرار ، لا فترة تطوير وتجديد . من هنا نستطيع أن نقول أن الأنظمة والتقاليد والعادات التي كانت في عهد المعنيين لا تختلف من حيث إطارها العام عن الأنظمة والتقاليد والعادات التي كانت في عهد الشهابيين . وبالمقابل يمكننا أن نعتبر الحالة الاجتماعية في جبل عامل أثناء فترة الحكم الشهابي استمراراً لسابقتها في العهد المعني , لأن الفارق بين هذه وتلك لم

١ــ العرفان مجلد , ٨ ، ج١ , ص/ ٥.

يكن إلا شكلياً ، يتنـاول فقـط أسـماء العائـلات الاقطاعية ، تبعاً لما توفّـره هـذه من مكاسب للسلطة المركزية في الولاية أو للآستانة . نقول فارقاً شكلياً ، لأن الإقطاعيين في تلك الأدوار كانوا يتبعون عند التطبيق نفس الأساليب التي تمكّنهم من الاحتفاظ بمكانتهم الاجتماعية وامتيازاتهم .

كان توزيع الإقطاعات يتم على شكل هبة من الحاكم المركزي الذي كان جبل عامل يخضع لسلطته . واستمر التوزيع على هذا النمط حتى سنة ١٨٦٠ ، حيث بدأ الطابو التركي ، واستمر حتى مطلع القرن العشرين ، فقسمت الأراضي العامة إلى ممتلكات خاصة . كان من نتائجها أن تكرّست الملكية الإقطاعية الكبيرة وثُبّتت قانونياً بتحايل الإقطاعيين على الفلاحين ، بإيهامهم أن القصد من قانون الطابو فرض ضريبة عليهم .

ثم إن الإقطاعيين اتبعوا للسيطرة على الأراضي أساليب منها:

١ــ استغلال الألقاب التي وزّعتها تركيا على بعض الوجهاء (بك ، باشا، أفندي ، آغا) .

٢ـ استغلال الالتزام ، ضمانة العُشر (آل بَزّي ، آل عبدالله ، آل جوهري ، آل فرنسيس) .

١- الاستيلاء على أراضي الفلاحين من قبل المُرابين الذين أرهقوهم بالديون ذات الفوائد العالية جداً (آل بَزّي , آل عبدالله) .

٢- اغتصاب الأراضي قسراً وبالقوة.

٣- الاستيلاء على الأراضي بالاحتيال عن طريق الوكيل الدوري .
٤- استغلال القدرة على الإعفاء من الجندية .

هذه الأساليب في ابتزاز الأراضي واستملاكها ركّزت الأراضي في يد مجموعة من الإقطاعيين . حتى بلغ عدد المحرومين من الملكية في تقدير حسن سليمان ٩٠% من مجموع السكان العامليين. (١)

أما الضرائب التي كان يدفعها الفلاحون فأهمها الميري. وهي بدورها تؤخذ مضاعفة. وبالإضافة إليها ضرائب تقليدية كان الإقطاعيون يتقاضونها ، وأهمها : باسم عادة ، باسم حلاوة ، باسم عيدية ، هدية ، السخرة . (٢)

١ـ مخطوطة في مكتبة حسن سليمان.

٢ـ الضريبة باسم (عادة) تعني أن كل شخص يتزوج لأول مرة عليه أن يدفع للإقطاعي رسماً يتراوح بين ١٠ و ١٥ مجيدياً. الضريبة باسم (حلاوة) دفع مبلغ من المال للإقطاعي أو لرجاله وذلك بعد إرجاع المنهوبات العائدة لدافع الضريبة . موضع الغرابة في هذا النوع من الضرائب يحدده الشيخ علي الزين في كتابه مع التاريخ العاملي /١٥٨: إن غالب هذه المنهوبات تحصل بواسطة الزعيم الإقطاعي ، ولم تكن تنهب بدون رأيه ومعرفته وسابق تصميمه . (السخرة) وإن تكن ليست من الضرائب , فإننا نعتبرها كذلك . لأن الاقطاعي يستثمر، إلى جانب أرزاق الفلاحين ، قوة عملهم . وكان ذلك يتم بأن يأتي ناطور المزارع وينادي : يا فلاحين ، يا فلتية ، عن أمر الوكيل ، أمر الأفندي . بكره كل واحد بياخد فدانو وبذاراتو ويحرث للبيك في مكان كذا وكذا.

تلك بالإجمال أنواع الضرائب التي كانت يدفعها الفلاحون للإقطاعي وهي في الواقع، كما يقول الشيخ علي الزين: "**لا تُعبّر عــن حب واحترام ، وإنّما عن خـوف مـن نقمة الأقـوياء ، أو من احتيـاط لـدفع مضرّاتهـم وغوائلـهم**"(١) .

ومن الطبيعي أن تولّد هذه الأحوال الاجتماعية جواً من عدم الثقة عند الجماهير العاملية الفلاحية ، وتفتح بذلك الباب واسعاً للسلب والنهب وقطع الطرق ، وما زال لقُطّاع الطرق والحرامية (٢) صدى واسعاً في الأجواء الشعبية اللبنانية, ومنها هذه الأغنية القديمة:

ارقصـي يا مليحة ارقصـي ولا تبـالي
بـدف المخشخش بنـقــل الجمـــال
زوجـك يا مليحة راح عالشام وحــده
زوجـك يا مليحة بـو زيـد الهـلالي

١- الشيخ علي الزين : مع التاريخ العاملي / ١٥٩.

٢ـ يروي الشيخ محمد تقي الفقيه في (ترجمة الشيخ يوسف الفقيه/١٤) " أنه حُكي أن مستشرقاً وصل إلى صيدا وجلس مع جماعة . فسألهم عن زعيم بلادهم ، فأثنوا عليه . فقال لهم : أي شيء يفعل ؟ فقالوا : إذا كانت السرقة في حوران أو الجولان يستطيع أن يردّها. فقال : ينبغي أن يكون هذا شيخ الحراميّة " .

١ – الحالة الاقتصادية:

فرضت الظروف السياسية التي عاشتها منطقة جبل عامل حتى نهاية الحرب العالمية الأولى عليه نوعاً من الحصار الاقتصادي . لأن الدولة التركية ، بسياستها المذهبية وتفريقها بين سني وشيعي ، أقفلت باب الهجرة أمام العامليين إلى المناطق القريبة ، أي إلى فلسطين وسوريا. هذا بالإضافة إلى حرمانهم من التمتع بالامتيازات السياسية الممنوحة إلى غيرهم من أفراد المذاهب الإسلامية . فلم يبق والحالة هذه أمامهم إلا الالتصاق بالأرض . وذلك ما تنبئنا عنه مجموعة الآثار والظواهر المتواجدة في المنطقة : كثرة معاصر الزيت والعنب والخروب والآبار الاصطناعية ، وبعض مشاريع الري المحدودة ، والمطاحن المائية على مجاري الأنهار. كل هذه تدل على ارتباط الجنوبي بالأرض ، ومحاولته تطوير حرفته الزراعية . وكذلك على مُمارسته كل أنواع العمل الزراعي ، وتصنيع بعض إنتاجه (استخراج الزيوت والدبس) . وإنّ انتشار شبكة البرك والصهاريج في المراعي وقُرب الغابات والمزارع والحظائر والمشاتي تدل على ازدهار الثروة الحيوانية.

لكن هل هذا يعني أن الحالة الاقتصادية في جبل عامل كانت مزدهرة ؟

إن ما يهمّنا من طرح هذا السؤال ، هو معرفة الحالة الاقتصادية

في فترة الحرب العالمية الأولى وما تلاها مباشرة . أي الفترة التي يتناولها موضوع البحث .

أما الإجابة فهي قطعاً بالنفي . الحالة الاقتصادية لجبل عامل في أواخر الحكم التركي كانت متردّية بشكل مخيف ، لجملة أسباب تضافرت على إيجادها عوامل ثلاثة :

أ ـ سياسة الدولة التركية ، لأنها سارت في طريق إفقار البلاد عن طريق فرض الضرائب المتنوعة ، ووضع الرسوم على الأراضي . والقضاء على زراعة التبغ بالحصر. ابتزاز الأموال عن طريق الرشوة . أضف إلى ذلك الخدمة العسكرية الإجبارية المفروضة على الطوائف الإسلامية . وكانت مدتها عشرين سنة . ستة منها تدعى عسكرية أو احتياط ، ثمانية رديف ، وستة مستحفظ. (١) . وقد أمعن جمال باشا في تجنيد الرجال وسوقهم إلى ميادين القتال حتى لم يبق إلا المرأة والصبي والشيخ الهم والضرير الزمن، ومن هو في حكمهم. (٢)

إن الأثر الرئيسي والمباشر لأنظمة السوق التركية, هو تجريد الزراعة

١- محمد جابر, تاريخ جبل عامل / ١٦٧.

٢- السيد عبد الحسين شرف الدين: صفحات من حياتي, مجلة الألواح, بيروت ؛ ٣/١٤.

من قوة العمل الأساسية . إذ لم يبق في جبل عامل آنذاك من هو دون الثامنة عشرة ومن هو فوق الخامسة والأربعين . أي غير القادرين على ممارسة العمل الزراعي بشكل جدي بحيث يمكن أن يتطور نحو الأفضل.

ب ـ وجود الإقطاعية :

يعزو الدكتور كاظم الأمين فقر البلاد وتدهور الحالة الاقتصادية إلى الإقطاعية . فالإقطاعيون الكبار والصغار وتجار المدن كانوا يستولون على تسعين بالمئة من إنتاج البلاد . بينما لا يتجاوز عددهم الواحد في المئة من مجموع السكان . والفلاح لا يكاد يحصل على القليل الضروري لقوته ، رغم الإنتاج الجيّد الذي كانت تعطيه الأرض . وكذلك الحال بالنسبة للعمال وصيادي السمك والحرفيين الذين يعملون في المدن. (١)

ج ـ عوامل طارئة: يمكن أن نعدد منها:

ـ موجة الجراد التي اجتاحت المنطقة .

ـ انتشار الأوبئة (كوليرا، جدري) , ممّا أدى إلى هلاك ما يزيد على ٥٠% من السكان المتبقين .

ـ الجفاف وعدم سقوط الأمطار في تلك الفترة.

ـ إصابة الماشية بأمراض أدت إلى نفق القسم الأكبر منها.

١– كاظم الأمين : العرفان, أطروحة دكتوراه : ١٩٦٧/ ٦٣ .

هذه العوامل الثلاثة مجتمعة أدت إلى تردي الحياة الاقتصادية والأوضاع المعيشية التي يصفها السيّد عبد الحسين شرف الدين بقوله : "**قلّت الأقوات وغلت الأسعار غلاءً عظيماً. فكان الفقراء يطوون اليوم تلو الآخر خاوين ، حتى ماتوا جوعاً . والموتى مطروحة في البيوت والشوارع العامة والبراري لا يؤبه بها** " . (١)

وحتى الآن لا تزال في لغتنا المحكية كلمات انعكاس ورَجْع لتلك الأيام . فمثلاً إذا ما أرادوا مدح إنسان بالغنى يقولون :" **فلان شبعان** ", لأن الشبع في تلك الفترة كان أقصى الغنى والجاه . وإذا ما تكلّم إنسان عن ثروة آخر وأراد المبالغة في الحديث يقول :" **فلان ألّف**"، أي أن بلوغ الثروة ألف غرش غاية لا يبلغها أحد .

لقد أدت الحالة الاقتصادية المتردية إلى كثرة العاطلين عن العمل ، وبالتالي إلى اختلال الموازين الاجتماعية . وانتشار أعمال اللصوصية وقطع الطرق . وأدت من ناحية ثانية إلى إكراه الفلاحين الصغار والمتوسطين على التنازل عن أملاكهم إلى المرابين والإقطاعيين ، مقابل النزر اليسير من المؤونة . وبهذا ترسّخت السلطة السياسي للإقطاعيين والمتنفذين وأبنائهم، وانتعشت في هذه الظروف بعض جوانب العبودية المظلمة . فانتشرت أعمال

١- السيد عبد الحسين شرف الدين , المرجع السابق/٣.

السخرة في أراضي وأملاك البكوات والأفندية (حرث الأرض واستصلاحها، وغرس الأشجار المثمرة) .

ثانياً: موقف جبل عامل من الحكم التركي

كان جبل عامل يخضع للحكم التركي المباشر. ونتيجة للقهر السياسي والاجتماعي الذي عاناه ، كانت له مساهمات في الحركة العربية القومية التي قامت في الأقطار الشامية للتخلص من النير التركي . لا بل إنه كان السبّاق في الدعوة لكثير من المؤتمرات والاجتماعات التي كانت تُعقد في الشام أو في بيروت.

ففي المؤتمر الذي عُقد في دمشق سنة ١٨٧٨ للنظر في استقلال سوريا وفصلها عن جسم الدولة العثمانية ، كان لرجال جبل عامل امتياز الريادة في الدعوة إليه . فقد كان الداعي أحمد باشا الصلح ، جدّ الأسرة الصلحية ، وولده منح . وقد مثّل جبل عامل في ذلك المؤتمر العالم الجليل السيد محمد الأمين من الأشراف الحسينيين سكان شقراء جبل عامل ، والنبيل الحاج علي عسيران ، رأس الأسرة العسيرانية المعروفة في صيدا ، والشيخ علي الحر الجبعي ، وشبيب باشا الأسعد الوائلي .

١-علي مروة : تاريخ جبع, دار الأندلس, بيروت, ١٩٦٧/ ٣٦٦ .

الموقف السياسي في جبل عامل كان من ضمن الموقف السياسي العربي آنذاك ، ألا وهو الاستقلال الإداري ضمن السلطنة العثمانية . لكنّ هذا الموقف تغير ليتخذ أبعاداً قومية ووطنية أكثر اتضاحاً، خاصة بعد ظهور نوايا الاتحاديين في تتريك العناصر العربية ، وفي القضاء على التراث العربي . مما حدا بالمنضمّين إلى جمعية الاتحاد والترقي من العرب إلى الانسحاب منها والدخول في الجمعيات التي تنادي بالاستقلال العربي الناجز. وكان أن تألّفت فروع لجمعية اللامركزية في صيدا ، وفروع لجمعية الثورة العربية في النبطية في ٢٦ تشرين سنة ١٩١٤. لكن أمر هذه الجمعيات اتصل بجمال باشا عن طريق كامل بك الأسعد كما يذكر جمال باشا نفسه في مذكراته ، صفحة ٣٥٥ (١) . وبناءً على هذه الوشاية أُلقي القبض على عدد كبير من زعماء جبل عامل ، وفي مقدمتهم رضا الصلح ، وابنه رياض ، وعبد الكريم الخليل ، ومحمد جابر والشيخ أحمد رضا ، والشيخ سليمان ظاهر ، والشيخ أحمد عارف الزين صاحب مجلة العرفان ، وراشد عسيران ، والشيخ عبد الله يحيى الخليل ، والشيخ إسماعيل الخليل وغيرهم.

سيق هؤلاء إلى عاليه . وكانوا من أول القوافل التي مثلت أمام

---

١ ـ محمد جابر : تاريخ جبل عامل / ١٨٣ .

المحكمة العرفية . ودام اعتقالهم ثلاثة وخمسين يوماً . ولما لم تتوفر الأدلة الكافية عليهم أُطلق سراحهم في ٢٨ تموز ، ما عدا رضا الصلح والمفتي بهاء الدين الزين ، اللـذين نُفـيـا إلى أزمير. وحُكم على عبد الكريم الخليل بالإعدام شنقا ، ونُفّذ الحكم فيه في ١٩ آب ١٩١٥.

نضال جبل عامل تعدّى المواقف السلبية تجاه الاحتلال التركي إلى موقع أكثر عنفاً . فتطور إلى حمل السلاح في وجه الأتراك . ولكن المواجهة المسلحة كانت محدودة وضيقة ، لأن الجماعات التي حملت السلاح لم تكن منتظمة ، لها أهدافها الوطنية الواضحة ، بقدر ما كانت تنطلق من مصلحة آنيّة ، هي الفرار من الجندية . فقد كان هؤلاء (الفرّاريّون) يضطرون إلى الاختباء والنزول بشكل سري من وقت لآخر إلى قراهم . ولم يخلُ الأمر من مصادمات مع الحاميات التركية المتواجدة في القرى.

موقف جبل عامل من الثورة العربية :

من الطبيعي أن يكون جبل عامل مندفعاً وبحرارة في تأييده لحركة الشريف حسين . ولكن ما نُقل عن موقف جبل عامل لايشير إلى مساهمة عسكرية مباشرة في وقائع الثورة العربية ، خاصة في مراحلها الأولى. وقد يكون مَرَدُّ ذلك لارتباط المتنفذين في جبل عامل مع الحكم التركي . ثم لعدم اطمئنانهم إلى نتيجة إيجابية للثورة العربية. ولا يخفي أنه في حال فشلها

مايلحق بهؤلاء من أضرار تطال مواقعهم وامتيازاتهم الاجتماعية . ويظهر ممّا يورده محمد جابر أنه كانت هناك اتصالات بين الحركة الشريفية ، متمثلة بشخص فيصل ، وبين كامل بك الأسعد. ولكن هذه الاتصالات لم تثمر نتيجة إيجابية لصالح الثورة . وكان الأمير فيصل قد أوفد السيد إيليا خوري في ٢٠ ذي الحجة ١٣٣٤هـ برسالة لكامل بك الأسعد ، يستحثه فيها على مهاجمة السواحل وطرد الأتراك منها ، ورفع الراية العربية في أنحاء جبل عامل ، فتريّث كامل بك حذراً من الفشل. (١)

يتضح مما تقدم أن جبل عامل لم يكن غائباً عن الأحداث ، بل قام بقسطه من النضال ضد الحكم التركي ، حسب إمكاناته التي حددتها ظروفه الذاتية وتطور الأحداث.

---

١ ـ محمد جابر : نفسه / ٢٢٢.

ثالثاً: الحالة السياسية في جبل عامل أثناء الاحتلال الفرنسي

كان دخول القوات الأجنبية الفرنسية والانكليزية ، المدعومة من حركة الثورة العربية ، إلى جبل عامل ، فاتحة انطلاقة وطنية كبيرة . فقد نزل النير التركي عن كواهلهم ، بكل ما يمثله من قهر سياسي واجتماعي. وهذه الانطلاقة الوطنية غذّتها وعود الحلفاء التي كانت تبشر بمنح استقلال تام وناجز لكل الأقطار الخاضعة للدولة التركية في حال الانتصار عليها.

ففي بلاغ إذاعته الحكومتان البريطانية والفرنسية في ٧ نوفمبر ١٩١٨، تتعهد الحكومتان بتشجيع العمل لتأسيس حكومات ومصالح أهلية في سوريا والعراق ، اللتين أتم الحلفاء تحريرهما ، وفي البلاد التي يواصلون العمل لتحريرها. وبمساعدة هذه الهيئات والاعتراف بها عند تأسيسها فعلاً . والحلفاء بعيدون عن أن يرغموا سكان هذه الجهات على قبول نظام معين من النظامات. (١)

من هنا كان الاندفاع في تأييد الحكومة العربية ، حتى أن الذين كانوا قد تريّثوا في السابق عن مد حركة فيصل بالرجال حذراً من الفشل ، باتوا السبّاقين في أخذ المبادرة وشد الإزر تجاه الحكومة العربية .

أول اتصـــال بين رجال الحكومة العربية وجبل عامل بعـد ذهـــاب

١- خير الدين الزركلي : ما رأيت وما سمعت , ط. مصر ١٧/١٩٢٣.

الاتراك كان برقية إلى محمود بك الفضل في النبطية ، بتوقيع الأمير سعيد الجزائري . وبها يعلن تشكيل الحكومة العربية في دمشق في أول تشرين الأول ١٩١٨. ويفوّض إليه إدارة الأحكام في النبطية وما يتبعها , ونصها :

"**بناءً على انسحاب الحكومة التركية قد تأسست الحكومة العربية الهاشمية على دعائم الشرف. طمّنوا العموم . وعليكم أن تُعلنوا الحكومة باسم الحكومة العربية". " .**

في ٢٤ ذي الحجة ١٣٣٦هـ "

الأمير محمد سعيد رئيس

الحكومة العربية " (١)

١- الحكومات المحلية في جبل عامل:

على أثر هذه البرقية ، وبعد قدوم السيد إيليا الخوري مندوب الأمير فيصل ، " **بدأ العمل في هذه الحكومات بإنشاء حكومة مؤقتة تحفظ الأمن باسم الملك حسين** (وكان هذا باتفاق مع الأمير الفاتح فيصل) . **فكان في بيروت شكري الأيوبي ، وفي صيدا رياض الصلح . وأنشأنا في صور حكومة على هذا القرار تحتفظ بالزمام لتلقيه بعدئذٍ إلى الأمير فيصل حتى تتوّج مساعيه بالنجاح ".**

١ـ محمد جابر: تاريخ جبل عامل/٢٢٣ و ٢٢٤ .

لكن هذه الحكومات المحلية لم تستمر في ممارسة أعمالها طويلاً . لأن سلطات الاحتلال لم يرُق لها هذا الشكل التنظيمي ، على هشاشته . وحجتها في ذلك أن المداولة في ضرورةِ البلاد تؤول في منتهى الأمر إلى الحلفاء. لذلك أقدمت في ١١ تشرين الأول ١٩١٨ على حلّ حكومة النبطية وذلك بإعلان نشر في الساحة العامة ونصه:

" **باسم القائد العام لجيوش الحلفاء الثلاثة ، انكلترا وفرنسا والشرفاء، يُمنع الاجتماع العام والمظاهرات السياسية من أي نوع كانت . ومن خالف ذلك عُدَّ مسؤولاً ومستهدفاً للجزاء** " .

باسم الحلفاء الثلاثة حاكم صيدا العسكري : فيجل (١)

وفي ٢٩ تشرين الأول من السنة نفسها ، استقال حاكم صيدا رياض الصلح ، بإيعازٍ من حاكم صيدا العسكري فيجل ، الذي انفرد وحده من بعدُ بحكمها.

٢- الخلافات على زعامة جبل عامل:

إن تعدد الحكومات المحلية في جبل عامل يُظهر حدة الصراعات الداخلية بين أطراف الإقطاع السياسي النافذ . من هنا كان التسارع على السيطرة السياسية ، بعد فراغها برحيل الأتراك.

١ـالسيد عبد الحسين شرف الدين: صفحات من حياتي , الألواح: ٥/١٤.

يقول محمد جابر: "**وعُقد في النبطية ، بدعوة من كامل بك ، اجتماع حافـل بالعلماء والأعيـان ، الغرض منه إسقاط حكـومة رياض الصلح ، والحملة على مناصريه من العامليين.**" (١)

وقد حدّث الشيخ علي الفقيه عن هذه الانقسامات بين أطراف الإقطاع السياسي بتفصيل أكثر فقال:

" **انقسم جبل عامل في تلك الفترة إلى قسمين : قسم يوالي رضا الصلح (عسيران ، الخليل ، أبو خليل) ، وآخر يوالي كامل بك (عبد الله ، بَزّي ، الفضل) "**. **(٢)**

وتبارى الطرفان في السيطرة على جبل عامل . وكان كامل بك يرى أن السلطة مطلقة له ، وحق من حقوقه ، توارثها أباً عن جد منذ ناصيف النصّار.

"**استطاع كامل بك إحراز السبق . وبالتالي كف يد آل الصلح عن جبل عامل. والجولة الأولى التي ربح فيها كامل بك** (والحديث ما زال للشيخ علي) **المعركة ضد خصومه ، كانت في بيروت ، أثناء توجه وفد عاملي كبير لتهنئة فيصل. وقد نزل الوفد في أوتيل أميركا وكان يضم من الطرفين**

١- محمد جابر, المرجع السابق,ص٢٢٣.

٢- تمت المقابلة معه في نيسان ١٩٧٣.

المتخاصمين . وفي إحدى جلسات الوفد قال كامل بك : مَن يُفـرّق الطائفة ، ويلعب بكرامتها ؟ ! " ، قاصداً بذلك الحاج عبد الله خليفة (من الموالين لرضا الصلح) . فنفى الحاج عبد الله هذه التهمة . وتدليلاً على ذلك تعانق مع كامل بك . وسلّم الجميع برئاسة كامل بك للوفد العاملي إلى الشام.

إن هذه الخلافات بين أطراف الإقطاع السياسي ، في تلك الفترة الحرجة التي كان يمر بها جبل عامل ، دلالة بيّنة على أن هؤلاء كانوا ينظرون للحركة الوطنية بمنظار ماتؤمنه من مردود ومكتسبات ذاتية ، أبعد ما تكون عن المصلحة الوطنية . والوقائع تنبئنا أن بعض أطراف الإقطاع السياسي غالباً ما كانت تطرح الوطنية جانباً ، إذا كانت على تعارض بيّن مع مصالحهم الخاصة . كما رأينا في مذكرات جمال باشا عن رجالات جبل عامل الذين اعتقلهم سنة ١٩١٥.

٣- الموقف من الوحدة السوريـة:

كانت مشاعر الناس وعواطفهم كلها مع الدولة العربية . وكان الاندفاع شديداً والحماسة قويـةً ، بحيث لايجرؤ أحد على الوقوف في وجه التيار الاستقلالي.

أما التعبير العملي الأول عن هذا الموقف السياسي ، فكان الوفد العاملي الذي قصد دمشق لتهنئة الأمير فيصل بدخوله المدينة المذكورة ، في ١٨ تشرين الأول ١٩١٨. وكان على رأس هذا الوفد كبار العلماء ، وفي

مقدمتهم كبير علماء الشيعة السيد محسن الأمين .

ويُرجع الأستاذ حسن الأمين الفضلَ في سفر الوفد إلى الشام لوالده العلامة السيد محسن الأمين . فقد رأى السيد محسن أن خطة الحلفاء كانت تقضي بأحداث دولة شيعية في جبل عامل ، منفصلة في بنيانها السياسي والإداري والاقتصادي عن الحكومة العربية في دمشق . فكان أن اصطحب وفداً من رجالات جبل عامل إلى الشام ، وحملهم على طلب الوحدة السورية من الأمير فيصل . (١)

ولا تذكر المصادر ما يدلنا على ماحدث مع الوفد في الشام . لكن تطور الأحداث يرسم الإطار العام لما جرى هناك . فبعد رجوع الوفد إلى بيروت طلب الجنرال غورو الاجتماع برجال الطائفة الشيعية ، فتردّدوا في المواجهة . وأخيراً استقر الرأي على المواجهة. وكان أكثرهم قد تفرّق ، فذهب الشيخ يوسف الفقيه والسيد عبد الحسين شرف الدين وكامل بك الأسعد وآخرون من العلماء . فلما وصلوا أُدخل كامل بك على غورو ، ثم عاد مستبشراً فرحاً قائلاً:"**جئتكم بالبشارة الكبيرة**"،قالوا:"**وماهي؟**"قال : "**الالتحاق بلبنان. إن آباءنا كانوا يقولون نيّال من إلو مرقد عنزة بلبنان**" (٢)

١- مذكرات محفوظة في مكتبة الأستاذ حسن الأمين.

٢-الشيخ محمد تقي الفقيه : ترجمةالشيخ يوسف الفقيه /١٦.

أحدثت هذه الكلمة صديً قوياً لدى الوفد العاملي. وانقسم الوفد بين مؤيد ومُعارض لكلمة كامل الأسعد . وأخيراً قام الشيخ يوسف الفقيه ، من المعارضين لكلمة كامل بك ، وقال :

" **ههنا اثنى عشر عالماً، وفي البلاد نحو أربعين . وزعيم واحد، وفي البلاد خمسماية وجيه . نحن لانستطيع البت بدون استشارتهم". (١)**

إنّ استعراض المداولات بين رجالات جبل عامل والسلطات الفرنسية يدلنا على أن معارضة فرنسا كانت تسير بحياء . ولولا المواقف الشعبية المتأزمة والمندفعة في تأييدها الحكومة العربية لَما تتالت الأحداث بالشكل الصدامي القادم الذي سنرى .

يقول السيد عبد الحسين شرف الدين عن موقف الجماهير:

"**وقد شهد الكثير من هؤلاء**(يقصد معتمدي فرنسا في المنطقة) **احتشاد الجماهير الهابطة من الجبل بأعلامها الوطنية الخافقة وهتافاتها الصاخبة . فكان لذلك وقعه في نفوسهم . وعلموا أن الشكيمة التي يحاولونها شديدة لا تُروّض. (٢)**

لقد استطاعت جماهير جبل عامل, والمخلصون من رجاله , ترجمة تطلعاتهم الوطنية إلى مواقف واضحة برفضهم محاولات التشتيت الفرنسية.

---

١ و٢ ـ السيد شرف الدين : صفحات من حياتي , الألواح : ٦/١٤.

٤-مساهمة جبل عامل في المؤتمر السوري: (٢ تموز ١٩١٩)

لا تورد المصادرُ مايُذكر عن مساهمة جبل عامل في هذا المؤتمر. فأسعد داغر يورد اسمي رضا ورياض الصلح ، ومعظم زعماء بلاد العلويين وجبل عامل (١) . ويورد قدري قلعجي اسم مراد غلمية مندوباً عن منطقة مرجعيون. (٢)

أما عن موقف جبل عامل في ذلك المؤتمر, فقد نقله الشيخ عبد الحسين صادق ، وهو يعبِّر عن مدى اندفاع العامليين في طريق الوحدة السورية . قال الشيخ موجهاً كلامه إلى فيصل:"**إنني باسم جبل عامل أبايعك على الموت**". (٣)

١- الموقف أمام لجنة كينغ- كراين:

كان موقف جبل عامل أمام لجنة كينغ كراين واضحاً وصريحاً بطلب الانضمام إلى سورية . وعلى الرغم من عدم وجود مصادر دقيقة عن نسبة مؤيدي الوحدة السورية من مجموع السكان , فإننا بما ذكر عن الإطار

١ـ . أسعد داغر: مذكراتي على هامش القضية العربية, القاهرة ١٩٥٩ /١٠٦.

٢ـ قدري قلعجي : جيل الفداء ، قصة الثورة العربية الكبرى ونهضة العرب ، بيروت ، دون تاريخ / ٣٠٥ .

٣ـ نفسه /٣٠٠ .

العام للموقف الشعبي واتجاهاته ، نستطيع أن ندرك أنّ الموقف أمام اللجنة الأميركية هو امتداد لموقف جبل عامل في المؤتمر السوري .

بلغ عدد أعضاء الوفد الذي مثّل المنطقة أمام اللجنة نحواً من مائة عضو. وفُوّض السيد عبد الحسين شرف الدين والشيخ حسين مغنية التكلم باسم الوفد أمامها. وبعد أن تكلم الشيخ حسين مغنيّة ، تولّى السيد عبد الحسين شرف الدين الحديث في كلامٍ طويل:

" **أفضيتُ خلاله بتصوير رغبات الأمة وأمانيها في الوحدة السورية بحكوماتها الدستورية. وأن يكون على رأسها الأمير فيصل ملكاً. ورفضت أن يكون لأية دولة أجنبية يد في حكم ودخل في انتداب , ولا سيما الحكم الفرنسي**" . (١)

ثم قدم باسم جبل عامل إلى اللجنة الأميركية المذكرة التالية الموقعة من رجالات جبل عامل :

سلامٌ عليكم شعباً صدع رئيسه بمباديْ الحرية ، وتحيةً لكم تقرنون الفعل بالقول ، ورحمة الله .

" أما بعد . فإنني أؤكد الحديث الذي أوردته وأخي الشيخ حسين مغنية . وأسجّل في هـذه الوثيقة خلاصة ما أدلينا به عشية الاجتماع ، منعاً

١ـ السيّد عبد الحسين شرف الدين : صفحات من حياتي , الألواح , العدد ١٤.

لكل لَبْسٍ لدى المترجم ، ودفعاً لأي دسٍّ من الذين يحرفون الكلم عن مواضعه . وإليكم ذكر البنود:

أولاً: لانرضى بغير استقلال سوريا التام الناجز بحدودها الطبيعية التي تضم قسميها الجنوبي (فلسطين) والغربي (لبنان) وكل ما يُعرف ببر الشام دون حماية أو وصاية.

ثانياً: تكون الحكومة ملكية ، ذات عدالة ومساواة ، يستوي فيه جميع الناس كافة في الحقوق والواجبات.

ثالثاً: الأمير فيصل مرشّح العرب الطبيعي لمُلك سورية ، لِما له من جهاد في سبيل القضية العربية ، ومن عبقرية سياسية وخلقية تؤهلانه لتسنّم هذا العرش .

رابعاً: لا حقّ إطلاقاً لما تدعيه فرنسا في أية بقعة من سورية ، ولا نقبل أية مساعدة منها.

خامساً : إذا كان لا بد لسوريا من مساعدة ، فإن الرئيس ولسن فتح بابا معقولاً لطلب المساعدةِ من أمريكا ، وذلك بإعلانه أن القصد من دخول الحرب كان للقضاء على فكرة الفتح والاستعمار.

هذا وأن المبادئ الكريمة التي أعلنها رئيس بلادكم تحملنا على الثقة في أن مطالبنا المشروعة هذه ستكون هي المعتمدة لتقرير مصيرنا، لأنها من ضمن المبادئ التي نصت عليها مبادئه السامية .

وتفضلوا بقبول الاحترام .

الخامس من شوال ١٣٣٧هـ (١)

الجمعيات الفرنسية:

استطاعت فرنسا أن توجد ثغرات تحدُّ من تماسك جبل عامل ، الذي أوضح في مشاركته في المؤتمر السوري ، وفي موقفه أمام لجنة كراين الأميركية . وذلك بإيجادها جمعيات عُرفت بالجمعيات الفرنسية . والحديث يتناول المناطق الإسلامية ، لا المناطق المسيحية سيرِدُ ذكرها لاحقاً.

يقول الشيخ أحمد رضا:

"**وأخبرني السيد أحمد أن الصوريين هناك يطالبون بعزل حاكم صور العسكري ، وبتفريق شمل الجمعية التي عُرفت هناك بالجمعية الافرنسية التي كان الشيخ حبيب [** مغنيّة **] من مؤسسيها.**" (٢)

ومع أن المصادر لم تنقل عن غير هذه من الجمعيات ، يبدو أن التعاون مع فرنسا عن طريق الدخول في الجمعيات لم ينحصر بأسماء محدودة . يشفُّ هذا من رد الشيخ محمد جواد مغنية دفاعاً عن عمه الشيخ حبيب فيقول: "**فالذين عملوا للفرنسيين كثيرون ، ولم يذكر الكاتب (**يعني

---

١ ـ وثيقةٌ للسيد عبد الحسين شرف الدين ، ستصدر في كتاب رسائل ومسائل . ٢

٢ ـ أحمد رضا : مذكرات للتاريخ , العرفان, ٣٣ , ج ٣، ص٢٥٤.

أحمدرضا) **واحـداً منهم لا ابتداءً ولا بالعرَض . وإذا استُحبّت مجاملــة الأحيـاء، فاحترام الأموات أولى .لأن للحي حجة يدافع بها عن نفسه" (١)**
لكنّ هذه الجمعيات لم يكن لها تأثير سياسي على مجرى الأحداث ، نظراً لضعف موقف رجالاتها أمام الحركة الشعبية المعارضة لسلطات الاحتلال .

٢- موقف المسيحيين في جبل عامل من اللجنة الأميركية:

استطاعت فرنسا بتغذيتها للعصبية الدينية أن تتجرف بالتطلعات الوطنية عند المسيحيين ، لتحصرها ضمن إطار ضيّق من النظرة الدينية المشوهة والمحدودة . فقد اتبعت معهم ، وخاصة الموارنة , إغراءات كثيرة بمنحهم امتيازات سياسية واقتصادية واجتماعية , برزت في توليهم الوظائف العالية ، والسماح لهم بالتهريب والاتجار ببضائع معينة معفية من الرسوم الجمركية . ولذلك أصبح للموارنة دالة كبيرة على المفوضين الساميين . حتى أنهم أخضعوا أحد هؤلاء سارايل لنفوذهم وجبروتهم وعلى مراعاة أوامرهم.(١)

وعند قدوم اللجنة الأميركية استغلت فرنسا، بواسطة رجال الدين الموارنة ، البطريرك الحويك ، ناحية تتعلق بهذه اللجنة يشرحها أمين الريحاني بقوله :

١ـ صايغ: لبنان الطائفي/١٤٤.

" بل أمعن رؤساء التعصب بالشقاق عندما وصلت لجنة الاستفتاء الأميركية إلى سوريا . فبما أن أساتذة الجامعة من أنصار النهضة العربية، وأعضاء اللجنة من وطن الجامعة ، ادعى غير واحد من رؤساء الدين أن للجنة مقاصد دينية بروتستانتية . وطلبوا من اللبنانيين أن يقاوموها ويتضافروا عليها . ومما يدعو للأسف أن اللجنة باتت على أيديهم عاملاً من عوامل الشقاق . لأنها في طريقة الاستفتاء ، عزّزت من حيث لا تدري مبدأ العصبيات الدينية والطائفية . إلا أنها فضحت فرنسا وجرّدت مزاعمها من الأوهام . لأن الأقلية اللبنانية فقط طلبت الانتداب الفرنسي ، ولم تشمل هذه الأقلية الطوائف كلها." (١)

ولو سلمنا مع أمين الريحاني, بأن أقلية مسيحية طلبت الانتداب الفرنسي ، فهل يمكننا القول أن مسيحيي جبل عامل كانوا من الأكثرية المقابلة؟

لا يمكننا البتُّ في هذا الموضوع بشكل جازم ، لأن حاصل استفتاء اللجنة الأميركية غير متوفر بشكل دقيق ، ولكن القرائن تفيد أن المسيحيين كانوا منقسمين إلى قسمين:

١- أمين الريحاني: ملوك العرب بيروت, مطبعة صادر, د. ت :٣١١/٢.

ـ الموارنة . وهم يؤيدون بأغلبيتهم الانضمام إلى دولة لبنان الكبير.

ـ الطوائف الأخرى (كاثوليك, روم أرثوذوكس) كانوا على الأقل لا يعارضون الوحدة السورية.

والذي يجعل هذا التقسيم أقرب إلى الحقيقة ، ما تسوقه المصادر عن مواقف كل من الفئتين . تنقل جريدة البشير عن حفلة أُقيمت في عين إبل (أغلبية سكانها من الموارنة) احتفاءً بوصول الجنرال غورو إلى بيروت ، في نفس الفترة التي كانت فيها اللجنة الأميركية تمارس مهمتها . تقول البشير:

"أقامت جمعية اتحاد الشبيبة الوطنية في عين إبل حفلة شائقة إكراماً لتشريف فخامة الجنرال غورو لسورية ، ولارتفاع العلَم المثلث الألوان . وقـد اجتمع الأهالي الساعة الثانية بعد الظهر، وافتتحت الحفلة بنشيد المارسيلياز ، ثم رُفع العلَم وحيّوه . وألقى حضرة الخوري يوسف فرح خطبة مستجادة ، ذكر فيها أمجاد العلم الفرنسي ، وبيّن مناقب الجنرال غورو، وزيّن صدر المحفل بصورته موضوعة ضمن إطار جميل طرزته راهبات قلبي يسوع ومريم الأقدسين في عين إبل . واختُتمت الحفلة بالنشيد والألعاب المفرحة حسب عوائد الميلاد. (١)

١– جريدة البشير: ٢٥٢, ٢ك١, ١٩١٩/٣.

أما عن موقف الكاثوليك والروم الأرثوذكس في جبل عامل من اللجنة ، فإن ما نُقل إلينا لا يعطي مثل الانطباع الذي تكوّن لدينا عن موقف الموارنة .

ينقل سلام الراسي في كتابه (لئلا تضيع) عن كاهن في مرجعيون (١٩١٩) اسمه خليل هزار، سبق له أن ناهض حكم الافرنسيين . ويورد المصدر نفسه حادثةً جرت سنة ١٩٤٧ ، مؤداها أن إبراهيم عازار نائب جزين فاتَح زميله نصار غلمية نائب مرجعيون بموضوع ضمّ مسيحيي مرجعيون في منطقة انتخابية واحدة مع مسيحيي جزين . فما كان من نصّار غلمية إلا أن قال له :

" **أجدادي قالوا لأجدادك : التركي ولا بكركي . وأنا أقول لك باسم مسيحيي قرى منطقة مرجعيون : رُبّ ثلاثين ولا جزين**". (١) .

يظهر من ذلك أن المسيحيين في منطقة مرجعيون كانوا أقرب إلى الحكومة العربية منهم إلى سلطات الاحتلال الفرنسي. أو على الأقل لم يكن لهم موقف عدائي تجاه الحكومة العربية ، أو موقف موال لها. لأن المصادر المتوافرة لا تنقل لنا عن موقف ذي هوية واضحة لمسيحيي المنطقة ، سوى ما أورده قدري قلعجي كما مرّ معنا، عن وجود مراد غلمية بين مندوبي جبل

١ـ سلام الراسي : لئلا تضيع ، بيروت, مؤسسة نوفل للطباعة والنشر, د.ت. :١٤٧/١.

عامل في المؤتمر السوري الأول . وحتى هذا الموقف لا يمكن أن يشكل أساساً راسخاً لتطلع إيجابي محدد من قبل المسيحيين تجاه الحكومة العربية في دمشق،لأن وجود رياض غلمية في المؤتمر السوري جاء بعد جهود بذلها رجالات الإسلام الشيعة لإقناعه بضرورة حضور المؤتمر، حتى ولو كان رمزياً .لأن وجود عنصر مسيحي في عداد وفد جبل عامل إلى دمشق يعطي انطباعاً أكثر إيجابية وتماسكاً مما لو كان الوفد خلوا من مسيحيين.

أ- العصابات في جبل عامل :

إن الحديث عن العصابات في جبل عامل يفرض إيضاح نقطة مهمة ، هي ضرورة الفصل بين العصابات ، أو بتعبير أصحّ الأعمال العسكرية التي كانت تحصل قبل هذا الاحتلال من قبل الفرّاريين والمجندين في الجيش التركي أو أثناءه من قبل البدو ، وبين العصابات التي تكونت في جبل عامل بتأثير دخول الحلفاء.

١- عصابات الفرّاريين ، المجندون ، البدو:

تألفت هذه العصابات من أبناء جبل عامل الذين كانوا يفرّون من الجيش التركي أثناء الحرب العالمية الأولى . وما إن تعلم السلطات التركية بوجود هؤلاء الفرّاريين حتى تأتي للبحث عنهم وتعاقبهم بالموت رمياً بالرصاص. فكان على هؤلاء أن يعيشوا هاربين من وجه السلطة ، ولا يأوون إلى القرى إلا سرّاً ، خوفاً من الوشاة. وفي هذه الحالة كان عليهم أن يلجأوا

للنهب لتأمين قوتهم وقوت عيالهم ، وما يدفعونه للإقطاعيين مقابل حماية هؤلاء لهم ولذويهم .

وهناك أعمالٌ مسلّحة كان يقوم بها الجنود الأتراك أنفسهم الذين كانوا يهربون من جبهة السويس ، ويمرّون في طريقهم بجبل عامل ، وهم في حالٍ يرثى لها من الجوع والتعب . وأحياناً يكون عددهم كبيراً ، فينهبون ويسرقون ليسدّوا رمقهم . وأحياناً يكون عددهم قليلاً ، فيضطرون إلى بيع أسلحتهم من الأهالي ليشتروا بها الطعام.

هذه لمحةعن عصابات الفرّاريين من المُجنّدين ومن الجيش التركي. لكن هناك تلميحات عن وجود عصابات غير التي مر ذكرها. ففي رسالة موجهة إلى السلطات الفرنسية يطلب أهالي عين إبل ردّ العصابات عنهم وعن مواشيهم ومحاصيلهم الزراعية . وفي الرسالة إشارة واضحة إلى وجود العصابات في العهد التركي. تقول الرسالة: " . . . **ولا يخفى على أحد من سكان هذه الجهات أن هؤلاء الأشقياء هم غالب الأوقات من عرب اللهيب ، الذين لا يملكون شيئاً من المواشي ، ولا يفلحون الأرض . بل يعيشون من السلب والنهب وهو أمر تعودوه في الدولة البائدة . فرجاؤنا بحكومة الاعتدال أن تجري بحقهم العدالة.** "(١)

١- جريدة البشير, ١١ أيلول ١٩١٩/٤.

وفي رسالةٍ أخرى كتبتها الراهبة كلمنتين خياط رئيسة دير راهبات القلبين الأقدسين في عين إبل سنة ١٩٢٠، توضيحٌ لأعمال السلب والنهب أثناء العهد التركي . لكنها تحصر هذه الأعمال بالمسلمين الشيعة في المنطقة . وقد يكون لهذه التهمة نصيبٌ من الصحة ، نظراً للفقر الشديد الذي كان عليه مسلمو جبل عامل ، مقابل البحبوحة الاقتصادية في القرى المسيحية ، لأن هذه القرى أفضل حالاً من غيرها بسبب كثرة المغتربين منها ، ولأن أبناءها لم يشملهم التجنيد الإجباري في فترة ما قبل الحرب.

تقول الرسالة:

" كانت عين إبل بموقعها قريبة من قرى المتاولة الشيعيين معرضةً لمساوئهم. إلا أنهم غالباً كانوا يكتفون بسرقة مواشي أهلها ونهب غلّاتهم وإهانة من يلقونه منهم في طريقهم . وكان العينبليون بوصاية كهنتهم وعقلائهم يجتنبون كل ما من شأنه أن يحرك غيظهم لينجوا كلهم من توسط الدولة التركية التي ترغب في هذه المشاجرات لتريح من الظالم والمظلوم معاً بالرشوة والبخاشيش . وبقيت الحال على ذلك إلى دخول الحلفاء سنة ١٩١٨ في بلاد الشام . فتنفس النصارى وأملوا النجاة من نير عبودية جيرتهم الطويلة. (١)

١ ـ مجلة المشرق, مجلد ١٨, سنة ١٩٢٠, ١٠ تشرين الأول / ٧٧٩– ٧٨٠

إن جميع هذه العصابات والأعمال المسلحة التي عرفها جبل عامل في العهد التركي انحلّت بمجرد دخول الفرنسيين. لأن الفرار انتهى بزوال تركيا . وأعمال اللصوصية قضى عليها وجودُ سلطة مركزية متماسكة قوية الجانب ، وخاصة في الفترة الأولى من دخول الحلفاء.

٢- العصابات التي نشأت مع الاحتلال:

كان للاحتلال الفرنسي أثر كبير في نشوء عدد من العصابات المسلحة التي اختلفت في مراميها وأبعادها الوطنية . تبعاً للمهمّات التي نشأت من أجلها. وتندرج هذه العصابات في فئات ثلاث:

أ ــ عصابات وطنية مناهضة الاحتلال.

ب ــ عصابات مسيحية موالية لفرنسا.

ج ــ عصابات شيعية للسلب والنهب تدين بنشأتها للفوضى السياسية .

أ ــ العصابات الوطنية المناهضة للاحتلال:

١ــ نشوؤها وتطورها:

نظر العامليون إلى الحلفاءغب دخولهم بلادهم نظرة ملؤها التفاؤل. لأن هؤلاء كانوا قد أغدقوا الوعود بمنح الاستقلال للشعوب المغلوبة بعد رفع السيطرة العثمانية. ومع اتضاح نوايا الحلفاء بشكل جليّ ، وإلغائهم تدابير الحكومات المحلية التي كانت قد أُنشئت بإيعاز من حكومة دمشق ، أدرك العامليون أن التغير في الصورة السياسية لجبل عامل لن يتناول سوى

الإطار الخارجي. من هنا فقد نشأت حالة تذمر سرعان ما انقلبت مقاومة مسلحة .

يلخص محمد جابر هذا الواقع بقوله : "**استفاق الناس ذات يوم في النبطية وإذا بعشرات الإعلانات والمناشير الثورية أُلصقت على جدران الأسواق والمعابد وسرايا الحكومة ومقر الجند وعلى باب غرفة الحاكم . مآلها حض الناس على مقاومة الفرنسيين الذين كانوا يعاملون الناس بالشدة والازدراء على غير ما كان يؤمل منهم . فخاب الرجاء وعظُم اليأس. فتألفت عصابات ثورية في جبل عامل لمقاومة موظفي الحكومة ومنع الأهالي من دفع الضرائب " (١)**

كان عمل هذه العصابات يتصاعد مع تقدم الانكليز والفرنسيين في تنفيذ مخططاتهم . فعلى أثر انسحاب الجيوش الانكليزية من سوريا، وجلاء نوايا فرنسا ورغبتها في احتلال المنطقة ، وبعد اتفاق فيصل مع كليمنصو ، وتعرضه لحملة من الانتقاد وجهها إليه أنصاره ، نشطت أعمال العصابات بشكل متزايد، وظهرت بوادر عصيان وتمرد وروج على القوانين في مختلف أنحاء البلاد . وهاجمت جماعات من البدو وقرى مختلفة في سهل ابقاع وعلى الحدود غير الواضحة المعالم بين سوريا ولبنان . وقُتل في قضاء

---

١ – محمد جابر : تاريخ جبل عامل/٢٢٥.

مرجعيون عدد من الناس وسفكت فيها دماء ، ووقعت أعمال السلب والنهب والتخريب . كما أن خسائر الفرنسيين كانت جسيمة.(١)

حول هذه الأحداث يقول جورج انطونيوس:

" **ولما وصل نبأ الاتفاق بين فيصل وكليمنصو قابله الناس بالإنكار ثم بالشجب العلني . وعمّهم الشعور بأن فيصلاً باع البلاد للفرنسيين . ووقعت أحداث في أمكنة مختلفة ، أعني مصادمات صغيرة ، أدت بالتوالي لمعارك خطيرة بين القوات الفرنسية والعربية ، وبخاصة في جوار طرابلس وبعلبك ، في الجنوب في مناطق مرجعيون والأُردنّ الأعلى (٢).**

وبلغت أعمال العصابات العربية ذروتها بعد إعلان مقررات مؤتمر سان ريمو وإعطاء فرنسا حقّ الانتداب على سوريا . فتعرضت المواقع الفرنسية إلى هجمات عنيفة على طول الحدود. وكان الملك فيصل في موقف حرج للغاية . فهو من ناحية يتلقى التهديدات من الجنرال غورو الذي أصبح مفوضاً سامياً على سوريا ولبنان . ومن ناحية أخرى يتلقى رسائل التوسل من أتباعه تدعوه إلى إعلان الحرب على فرنسا. فوقف حائراً لا يدري

١- زين الدين زين: الصراع الدولي في الشرق الأوسط وولادة دولتي سوريا ولبنان, دار النهار, بيروت ١٩٧١/٦٠.

٢- جورج انطونيوس: يقظة العرب ، بيروت ١٩٦٦/٤١٦ - ١٧ ثم ٤٢٠ بالتوالي .

ماذا يفعل . لذلك فهو ، وإن لم يشجع العصابات ، فقد تغاضى عن أعمالها وربما أوصى بها. (١)

٢ ــ دور حكومة دمشق في أعمال العصابات:

تكوّنت النواة الأساسية لنشوء العصابات الوطنية في جبل عامل. ونظراً لتطلع جبل عامل نحو الوحدة السورية ، كان لا بد من أن تأخذ الحكومة السورية على عاتقها مبدأ تنظيم العصابات العاملة ، ومّدها بأسباب الحرب من أعتدة وذخيرة . هذا المبدأ أعلنه بوضوح ، من حيث إطاره العام، قائدُ الفـرقة الثالثة في حلب يوم ١٣ إبريل ١٩١٩ :

"لمّا كنا لانستطيع إعلان الحرب رسميّاً على الفرنسيين يجب علينا أن نملأ البلاد بالعصابات المسلحة التي تُجهز عليها تدريجياً. وسيقود ضباطنا هذه العصابات فإذا استشهد أحدهم تُعيل الحكومة عائلته. "(٢)

هذا من حيث الإطار العام.

أما بالنسبة لمساعدة حكومة دمشق العصاباتِ في جبل عامل فتوضحها جــريـدة البشير بقولها :

---

١ ــ نفسه / ٤٢٠ .

٢ ــ قدري قلعجي, جيل الفداء/٣٨٦.

" وصل إلى حاصبيا مائة وستون جندياً قادمون من دمشق . وكان مع هؤلاء جماعة موفدون لبث روح الثورة في في تلك الاطراف . وكان الجند يقولون ، فليبعِ مَن لم يكن له بندقية ثورَه أو حمارَه ، ويشتري بها بندقية " (١) .

ويؤيّد الشيخ أحمد رضا في مذاكراته دخولَ قُوّات عربيّة إلى جبل عامل إذ يقول :

" وأخبرني بعض القادمين من هونين ، أنّ ثلاثين جندياً عربياً شريفياً نزلوا في الخالصة من قرى الحولة . وهم يتعاهدون قرى الحولة قريةً قرية في الأُسبوع مرّة أو مرتين لحفظ الأمن " (٢) .

" وحدثني كثيرون من أهل منطقة بنت جبيل عن كيفية وصول الأسلحة والذخيرة إلى رجال العصابات . وكان ضابط الارتباط بين العصابات وحكومة دمشق ضابط عربي يُدعى علي خلقي" (٣) .

٣ ـــ أهم العصابات الوطنية:

من الصعوبة بمكان تحديد عدد العصابات التي عملت ضدّ

---

١ ـــ جريدة البشير ٢٤٩٩ ، ٢٢ك٢ ، ١٩١٩ / ٣ .

٢ ـــ أحمد رضا : مجلة العرفان ، المجلد ٣٣ ، ج.٦ / ٦١٨ .

٣ ـ كان مركز علي خلقي في عديسه في بيت الحاج علي نجدة .

الفرنسيين في سنة ١٩١٩ ، لأن الأعمال الفردية التي وقعت آنذاك ، وطبيعة السرّيّة التي يفترض أن تحيط بالأعمال العسكرية للعصابات ، وتوفر الأسلحة عند عدد كبير من الناس المتحمسين ، محا الحدود التي من الممكن أن تشكل معالم فاصلة تحدد لنا عدد العصابات وعدد أفرادها. لكن هناك عصابات اشتهرت أكثر من غيرها ، وضمّت شباناً من عدة قرى ، لا عمل لها إلا مقاتلة الجيش الفرنسي .

أهم هذه العصابات:

- **عصابة صادق الحمزة** : وهي أهم العصابات في سنة ١٩٢٠ . سواء من حيث عدد عناصرها، أم من حيث أعمالها ضد عناصرالاحتلال . كانت تغطي منطقة جبل عامل بأسرها . وقد ذُكرت معارك ووقائع لها وقعت في أقضية صور وبنت جبيل والنبطية ومرجعيون.

زعيم هذه العصابة (صادق الحمزة) من قرية دبعال قضاء صور . ينتمي إلى أسرة آل علي صغير, أي أنه من أقرباء كامل بك الأسعد. ولكن لم يكُن لجذوره الإقطاعية شأن في نشأته وطفولته . فقد عرف منذ صغيره التشرد والفقر . وقد يكون السبب في التفاف واحتضان العامليين لعصابته أكثر من غيرها طبيعة نشأته الفقيرة.

بلغ عدد أفراد عصابة صادق الحمزة مائة وخمسين عنصراً على أقل تقديـر . هـوذا ما نستدلّ عليه من قولٍ للشيخ أحمد رضا: " **شاع اليوم أن**

صادق الحمزة من قادة الثورة أتى إلى قرية عديسه ورفع عليها العلم السوري . ثم فعل ذلك بقرية بليدا ، بعد أن مر بقرية الطّيبة ومعه مائة وخمسون من رجاله ما بين راكب وراجل" . (١)

ــ **عصابة أدهم الخنجر:** ثاني كبريات العصابات . ينتمي رئيسها أدهم بك خنجر إلى أُسرة الدرويش الإقطاعية ، المعروفة في تاريخ الجنوب (هذه العائلة من الأسرات التي منها آل الفضل في النبطية) . وهو خال أبناء راشد عسيران . وكانت عصابته تضم العشرات من الرجال . وميدان عملها في منطقة الشقيف . ومركزها الأساسي قلعة الشقيف.

ــ **عصابة محمود الأحمد بَزّي** . ميدان عملها منطقة بنت جبيل . رئيسها من وجهاء بلدة بنت جبيل . مواقفهاالوطنية غير واضحة ، ولم يُنقل ذكــرُ أي صدام لها مع الفرنسيين .

هذه العصابات الثلاث هي أشهر ما قد عرفه جبل عامل في ذلك الاوان . وأشهرها على الإطلاق عصابة صادق الحمزة . وكما قلنـا ، إن توفـر السلاح أدّى إلى نشوء عصابات صغيرة في كل القرى تقريباً. تقــول جريدة البشير، وهي الناقمة على العصابات لأنها – أي البشير– كانت في صفّ سلطات الاحتلال :

---

١ ـ أحمد رضا: مذكرات للتاريخ, العرفان, م٣٣, ج٧/٧٣٣.

" تفاقم شر العصابات في هذه الأيام ... فبدل عصابة واحدة كانت تعيث في البلاد فساداً بزعامة المدعو صادق ، أضحينا اليوم تحت حكم عصابات . فواحدةٌ تحت إمرة صادق المذكور ، وثانية تحت زعامة أبو زلكي ، وثالثة تحت رئاسة محمود أحمد بَزّي ، ورابعة وخامسة وسادسة تحت أمرة رشيد غصين من القنطرة ، وشبلي من طرزبنا ، وكل مَن تسوّل له نفسه الاستغناء العاجل بمال قريب " . (١)

٤ نماذج من أعمال العصابات الوطنية:

قامت العصابات الوطنية في جبل عامل أثناء عامي ١٩١٩ و ١٩٢٠ بنشاط متنوع الأوجه . إن استعراضنا لأعمال هذه العصابات يظهر أنها أعمال تخدم فكرة سياسية واضحة ، هي محاربة الفرنسيين:

ــ "خرج عبد الغني الدح مع اثنين من الجندرمة إلى تبنين لتحصيل أموال الحكومة . فقابلهم صادق وقبض على الخيل والمال والدفتر . فأخذ الخيل لنفسه . أما المال فعاد فوزّعه على كل من كان جمع منه ، طبقاً لما هو مذكور في الدفتر . وتهدّد الأهلين بالويل إذا ما عادوا إلى دفع الدراهم للحكومة الفرنسية" . **(٢)**

١- جريدة البشير, ٣ نيسان, ١٩٢٠/ ٣,١ .

٢- ـ جريدة البشير , نفس المصدر والصفحة.

ــ " في ٢٢ نيسان ذهب التحصيلداريون ، تحت حراسة بعض أنفار الجندرمة لأجل جباية الضرائب الأميرية من قرية عين بعال في ساحل صور. فهجم عليهم فريق من الأشقياء ، وكانوا قد علموا بوجودهم هناك وأطلقوا عليهم الرصاص . فتركوا خيلهم ورجالهم ولجأوا إلى الفرار، وسكان القرية يتفرّجون عليهم" . (١)

ـ " صادق الحمزة يُحاصر مدينة صور ويصطدم مع حاميتها . فيقتل واحداً وينتظر خروجَ أحد لقتاله , ولكنه لم يظفر بأحد . (٢)

" كان لمنشور إعلان الاستقلال وملكية الملك فيصل الأول ابن الحسين على سوريا وقع عظيم في نفوس الناس . وكان الاحتفال في بلاد بشارة شائقاً رائقاً والابتهاج عاماً . وكان المنتدب لإعلان ذلك صادق الحمزة الزعيم الثائر فقد دخل ناحية هونين واستقبله الناس بالبشرى. (٣)

٥ موقف الجماهير من العصابات الوطنية:

كانت العصابات الوطنية في جبل عامل تعبيراً عن الشعور العام لدى العاملين تجاه الاحتلال الفرنسي , هذا ما بدا واضحاً في الالتفاف

---

١ ـ جريدة البشير, ٢٥٦٣, ٢٩ نيسان, ١٩٢٠, ص٣.

٢ـ أحمد رضا: مذكرات للتاريخ, العرفان, م٣٣, ج١٠,/ ١١١٤.

3 ـ ا لعرفان, م٣٣, ج٧ / ٧٣٤.

حول هذه العصابات وأشخاصها . هذا الالتفات اعتبرته الجماهير التفافاً حول الحركة العربية وحكومة دمشق . فالنظرة إلى صادق الحمزة أو أدهم الخنجر عند العامليين في تلك الفترة تجاوزت الأطر المعقولة لتصيغ عليها حالات من السحر. فقد كانت القرى في جبل عامل تتسابق لإحلال صادق الحمزة أو أدهم خنجر ضيفاً عليها. وقد حدثني كثيرون عن استقبالات تلك القرى لصادق أو أدهم : بنت جبيل ، يارون ،كفرا، الحلوسية،عين بعال، جويا . حيث كانت القرية تلتئم مع القرى المجاورة لها في عرس . وتنعقد حلقات الدبكة والرقص والغناء طول مدة إقامة زعيم العصابة فيها .

حدّث الشيخ إبراهيم سليمان من البياض (١), أنه عندما كان في الرابعة عشرة من عمره , أخبره قريبٌ له أنه رأى صادق الحمزة في جويا وحوله جموع كثيرة . وعلى مرأى من هذا الجموع كان يتلقى الرصاص في ثيابه . ومع الافتراض بأن هذا المشهد مختلق كلياً من الصبي ، فإن روايته بحد ذاتها ، واختيار صادق الحمزة بطلاً لها تدل على المنزلة التي بلغها في نظر العامليين .

هذه النظرة إلى صادق نستشفها كذلك من الصورة التي رُسمت له في كتاب ثورة جبل عامل ١٩٢٠ ، بناءً على وصف موسى الزين شرارة له:

١ــ جرت المقابلة في نيسان ١٩٧٣.

" امتاز بجرأته وإقدامه وقامته الطويلة ولحيته السوداء وصوته الخشن . وهذه الصورة عن الرجل ساعدني في تكوينها السيد موسى الزين شرارة من بنت جبيل , وقد رأى صادق الحمزة مرة في يارون" (١).

فصادق الحمزة ، كرجل ، ملأ جبل عامل وشغله . لا يستطيع فتى آنذاك ــ موسى الزين شرارة ــ أن يتصوره كما هو في الواقع مربوعاً وسيط القامة ، كما سنرى في الترجمة له . بل يرسم له صورة تطابق في مواصفاتها صورة الأمير بشير الشهابي من حيث المظهر . اللهم إلا إذا افترضنا أن أي شخص من الجموع المحتشدة لاستقبال صادق الحمزة لا يتجاوز في طوله الـ١٦٠ سم .

ذلك الالتفاف الجماهيري حول العصابات هو الذي مكّنها من الديمومة والنمو . والانتقال في أعمالها من الضربات الخاطفة إلى المواجهة المباشرة مع قوات الاحتلال .

ب ـ **العصابات المسيحية الموالية لفرنسا :**

١– **نشوؤها:**

أوجدت فرنسا فِرَقاً مسيحية مسلّحة. حُجّتها في ذلك، تمكين

١ــ الياس صادر : ثورة جبل عامل ١٩٢٠, رسالة لنيل شهادة الكفاءة, بيروت ١٩٧٣ / ١٦.

أهالي المنطقة من حماية أنفسهم أمام هجمات العصابات الموجودة في المنطقة . لكن حقيقة هذا التصرّف تجلى في هدفين أساسيين:

ـــ تأزيم حدة الفوضى السياسية في جبل عامل . وذلك عن طريق إذكاء أعمال السلب والنهب من ناحية ، وتسعير الشعور الطائفي في منطقة جبل عامل من ناحية ثانية . والهدف من ذلك واضح ، هو إظهار منطقة جبل عامل غير مؤهلة للتعايش مع أقلية مسيحية . وهذا ما يفسح في المجال أمام فرنسا بالادعاء أمام المؤتمرين في سان ريمو بالحق في حماية الأقليات المسيحية . وبالتالي عدم موافقتها على ضمّهم سياسياً إلى سوريا.

ـــ جعل هذه الفرق المسلحة فرقاً مقاتلة في الخنادق الأولى أمام القوات الفرنسية المتواجدة في منطقة جبل عامل.

٢- نماذج من أعمال هذه العصابات:

تألفت عصابات مسيحية (تحت رعاية حاكم صيدا المسيو شارينتيه ، فيما قيل) على رأسها المدعو عيد الحوراني من قرية الكفور في ضاحية النبطية . وكان من أعمالها :

ـ اليوم بينما كانت بوستة الركاب قادمة بركابها من صيدا إلى النبطية ، قطعت عصابة عيد الحوراني عليها الطريق عند ساقية مصيلح، فنهبت منها ما يقرب من ٣٥٠ ليرة عثمانية ذهباً... ومع ذلك فإننا نرى عيداً الحوراني يخطر في أسواق صيدا والنبطية ، مدجّجاً بالأسلحة الحربيّة ،

وعلى مرأى ومسمع من رجال الحكومة والأمن العام لا يعترضه أحد. (١)

ــ بينما كان الحاج حمادة جابر من النبطية ، ومعه رفقة ، راجعين من سوق عديسه يوم أمس ، وبينهم رجل من قرية عديسه مسلم شيعي ، خرجت عليهم عصابة مسيحية مؤلفة من خمسة عشر رجلاً واعترضت طريقهم... وذهبوا وهم يشتمون المتاولة وكامل بك. (٢)

ــ قطعت عصابة القليعة دير ميماس الطريق على جسر الخردله ، بين النبطية ومرجعيون . وتشكلت عصابة ثالثة في وادي الكفور وماحواليه ، تقطع الطريق من خان محمد علي إلى قرب قرية حبوش. ورأس هـذه العصابة عيد الحوراني من قرية الكفور.(٣)

ج ــ عصابات السلب والنهب:

تلتقي هذه العصابات بأهدافها مع العصابات المسيحية . رغم وجود هذين النوعين من العصابات لدى الطرفين . لأن العصابات بأفـرادها ، من المسلمين الشيعة ، شكلت الطرف الثاني من المؤامرة الفرنسية التي تكلمنا عن أهدافها في حديثنا عن العصابات المسيحية. واتخذت في أغلب عملياتها

١- أحمد رضا, مذكرات للتاريخ, العرفان , م ٣٣, ج٩ /٩٩١.
٢- نفسه , العرفان , م ٣٣, ج٧/٧٣٧.
٣- أيضاً , م ٣٥, ج١٠/ ١٠٣٠.

من قراهم هدفاً لها , لأنها أكثر غنىً من القرى الإسلامية . من هنا فقد تبادر لأذهان المسيحيين ، نتيجة أعمال هذه العصابات من ناحية ، ولما بثته السلطات الفرنسية في نفوسهم من ناحية ثانية ، إنها وُجدت بموافقة الحكومة العربية والأطراف الوطنية من العصابات الأخرى في سبيل هدف محدّد هو القضاء على العنصر المسيحي.

نماذج من أعمال هذه العصابات:

ـــ وجد رجال العصابة جمّالاً من قرية حدّاثا , وادي عاشور فاغتصبوه جمله ودراهمه. والتقوا بسعيد من القرية نفسها عند زيتون المطران بين بنت جبيل والطيرة فسلبوه دوابه المحمّلة حنطة. (١)

ـــ دهم أشقياء "عيته" فلاحاً من قرية دبل فأخذوا فدانه.وسلبوا واحداً من أهل عين إبل ذاهب لحراثة أرضه ماعزَه وسلاحَه ودراهمَه وزادَه. (٢)

ـــ لايخلو يوم من فظائع أولئك اللصوص . فمن ذلك أنهم هجموا الخميس الغابر على قرية أقرط المسيحية. (٢)

ـ أخذوا جملين من قرية النفاخية ، وأتلفوا حقولاً كبيرة مزروعة فولاً تخص المسيحيين . فأتى المتاولة المجاورون وأجهزوا على ما بقي منها.

١- جريدة البشير, ٢٥٢٩, ٢٥ك١ ١٩٢٠ / ٣.

٢- نفس المصدر والصفحة.

ـــ نزل الأشقياء بقرية جويا ، فنهبوا ما نهبوا . وقتلوا عرفان الحسيني ومحمد علي الكريدي. (١) .

***

مع ذلك تبقى العصابات التي قاومت الاحتلال الفرنسي في جبل عامل عام ١٩٢٠ التعبيرَ العملي الصادق عن موقف العامليين الرافض للاحتلال الفرنسي ، المتطلع للانضمام إلى سوريا.

أمّا الثغرات التي حدثت في تنظيم هذه العصابات وفي بُناها السياسية ، فهي ظاهرة طبيعية ، نتيجةٌ لعدم وضوح الرؤية السياسية أمام رجالها بسبب ظروف ذاتية ، فأغلبهم أميّون . أضف إلى ذلك مناهضة الإقطاع السياسي لهم . وظروف خارجية تتعلق بتقلب الموقف وتذبذبه في دمشق.

١- أيضاً , ٣ نيسان١٩٢٠/٣ و ٦ أيار ١٩٢٠ / ٣ .

الفصل الثاني

ظروف وأسباب انعقاد مؤتمر وادي الحجير

عُقد مؤتمر وادي الحجير (٢٤ نيسان ١٩٢٠) في فترة كانت الحركة الوطنية في جبل عامل تواجه مرحلة حرجة . حتّمت مواقف جديدة تخالف سوابقها . سواءٌ من حيث نظرتها للحركة العربية في دمشق ، وخطها المتمثّل في قرارات المؤتمر السوري . أم من حيث نظرتها للاحتلال الفرنسي، وإلى انضمام جبل عامل إلى لبنان.

أهم ملامح هذه المرحلة في منطقة جبل عامل خصوصاً :

أولاً : تحرُّج الوضع السياسي :

الوضع السياسي في جبل عامل مرتبط إلى حد كبير بالوضع السياسي العام في المنطقة العربية . فالحركة الوطنية فيه ، المناهضة للاحتلال الفرنسي ، بوصفها رافداً من روافد الحركة العربية ، المتمثلة آنذاك بالحكومة العربية في دمشق ، ــ كانت ترتبط إلى حد كبير بهذه الأخيرة. بمعنى أن الانتصارات التي قد تحققها الحكومة العربية في مفاوضاتها مع الحلفاء أو في عملها داخل سوريا ، كانت تنعكس إيجابياً على الحركة الوطنية في جبل عامل . وبالعكس فإن أي انتكاسة في العمل ، أو تذبذب في الموقف عند رجالات دمشق ، كان يترك أثره السيء على مجمل سير الحركة الوطنية المحلية .

في مطلع العام ١٩٢٠ تصاعدت الأحداث في المنطقة العربية ، وتحرّج الموقف في دمشق أمام الحكومة العربية ، مع اقتراب موعد سان ريمو (٢٠ نيسان ١٩٢٠) . فكان من الطبيعي والحالة هذه أن تجهد الحكومة العربية لتعزيز قاعدتها ، وتعمل للحصول على موقف جديد ، يدعم الموقف القائم في جبل عامل . والذي برز بمساهمته في المؤتمر السوري المنعقد في ٢ تموز ١٩١٩ ، وفي استفتاء اللجنة الأميركية . ومن جهة ثانية، كانت سلطات الاحتلال الفرنسي تحاول انتزاع موقف من جبل عامل يختلف عن مواقفه السابقة ، ويؤيد وجهة نظرها بضم الجبل إلى لبنان الكبير. ليشكل هذا الموقف ورقة ضاغطة على المؤتمرين في سان ريمو .

ثانياً: تأييد المسيحيين لفرنسا:

استغلت فرنسا تأييد مسيحيي جبل عامل وترحيبهم بها، لتجعل منهم فِرقاً انتحارية في خطوطها الأولى تنفيذاً لمآربها السياسية . ذلك ما تؤكده الوقائع التاريخية ، ومنها ما يذكره أمين الريحاني في (ملوك العرب) :"

وجاء أحد أهالي مرجعيون في حادثة الجديدة الثانية (١٩٢٠) إلى قومندان الموقع يطلب منه بعض الذخيرة ، وكان قد نفد ما عنده وأهله، فلما وصل الرجل إلى دار الحكومة وجد الكومندان في فناء الدار يلاعب أرنباً . فطلب منه ذخيرة فأبى . فقال الرجل : لا تدافعوا عنّا ، ولا تعطونا سلاحاً وذخيرة لندافع عن أنفسنا . فلم يكترث وظل يلاعب أرنبه . ثم نظر

إليه بعين الاحتقار وقال : مات من الفرنسيين ألوف في الخنادق ، وأنتم تشكون إذا مات منكم عشرة. " (١)

أسهم في إذكاء هذا الشعور وتزايده الصحف الموالية لفرنسا ، الصادرة في بيروت . التي كانت تبدو وكأنها نشرات تصدرها سلطات الاحتلال . فالعدد ٢٤٩٨ م من جريدة البشير تاريخ ٢٠ كانون الثاني ١٩١٩ ، والعدد ٣٦٨- ٨٠١٨ من جريدة لسان الحال تاريخ ٢١ آذار ١٩٢٠ ، يتحدثان فقط عن الجنرال غورو . وصورته تزين الصفحة الأولى بأكملها وكأنه بطل وطني لبناني.

وفي عدد آخر تنشر جريدة البشير خطاباً لنائب فرنسي يدعى بيار لنايل، ألقاه في مجلس النواب الفرنسي أثناء جلسة بحث في القضية العربية. مقاطع من هذا الخطاب كافية لتثير ردة فعل عند الفرنسي الواعي . بينما جريدة البشير تنشره في محيطٍ عربي يعتمل حقداً على سلطات الاحتلال ، للتدليل على حسن نية الفرنسيين وصفاقة العرب المطالبين باستقلالهم.

يقول هذا النائب مستغرباً ، والغصة تكاد تخنقه: "**كيف تطرّف المؤتمر السوري ، حتى أبلغ قوات الاحتلال بأن تنسحب من المناطق الموجودة فيها**". (٢)

١- أمين الريحاني: ملوك العرب : ٢ / ٣١٧ .(٢)لسان الحال:٢١نيسان١٩٢٠/٢.

ومقالات جريدة لسان الحال لاتخرج عن الإطار نفسه . فهي تنحو منحى سابقتها في سياستها العامة . بحمل السيف تجاه الحكومة العربية، والمروحة تجاه المحتلين : " **وقد نشرنا هذه الحادثة ليطّلع عليها القراء. وإننا نستغرب اندفاع الأمير فيصل في الحط من كرامة الذين يفضّلون تدخّل الأجنبي . أفلا يرى سموه أن من المصلحة الوطنية المجردة عن الهوى أن نستند في مبدأ حياتنا إلى الأجنبي". (٢)**

إن هذا الشعور بالعداء تجاه الفكرة الوطنية والحركة العربية عند المسيحيين تعدى المواقف السياسية والتسلُّح الفردي للعصابات المسيحية التي تحدثنا عنها سابقاً ، إلى تسلّح جماعي من قبل أهالي كل قرية مسيحية ، شكّل منطلقاً لحرب أهلية كانت تمهد لها فرنسا. لأن القرى المسيحية كانت في أغلب الأحيان مراكز تجمع لقواتها . وهذا يعني أن أي عمل تقوم به العصابات الوطنية العاملة في المنطقة ضدها سيعتبر بشكل أو بآخر خرقاً لحرمة القرى المسيحية. ينقل الشيخ أحمد رضا ذلك بقوله :" **روى لنا اليوم بعض أهالي دير ميماس ، وهي قرية مجاورة لقرية الخربة ، حديث ما جرى يوم الاثنين الماضي بين العرب والعسكر في قريتي القليعة والخربة .**

١ـ البشير, ٢٥٥٨, ١٧ نيسان ١/١٩٢٠.

٢ـ لسان الحال, ٣٨٥- ٨٠٣٥, ٣١ نيسان ٢/١٩٢٠.

قال: هاجم فريق من الثوارقرية الخربة في الساعة العاشرة غروبية نهاراً . وقابلهم أهل القريتين بالنار. ودامت المعركة عدة ساعات . وجاءت فرقة من العسكر تنجد أهل القريتين . ودامت النار إلى الساعة الثامنة غروبية ليلاً . وكانت القتلى من الفريقين كثيرة. وقيل إن خسارة العسكر كانت فوق العشرين قتيلاً. وقال بعض القادمين ، إن أرض الخربة كانت ملطخة بالدم . ثم بلغنا [أنّ] قائمقام مرجعيون ألّف عصابة من مسيحيي القليعة والخربة، وأن هجوم الثوار على القريتين كان لمحاربة هذه العصابة " .(١)

من ذلك نرى أنّ السياسة الفرنسية وجدت في الاختلاف الطائفي طريقها المؤدى إلى مآربها. فسعت لتغذيته قاصدة تضخيم نقط الضعف في جبل عامل . فتدفعه إلى أن يعلن عن نفسه عدم الكفاية لما ينشده من التحرر والانعتاق .

ثالثاً: تزايد التحركات الفرنسية:

شهد مطلع السنة ١٩٢٠ تزايداً في اتصالات فرنسا برجال جبل عامل وسكانه ، إمّا باستدعائهم إلى بيروت أو صيدا ، وإمّا بقدوم مسؤولي الاحتلال إلى مراكز المتنفذين في المنطقة .

ابتدأت التحركات الفرنسية بزيارات عديدة قام بها رجالاتها لمناطق

١ـ أحمد رضا: العرفان, مذكرات للتاريخ, م٣٣, ج٧/٧٣٧.

جبل عامل. وطبعاً سعت السلطات المحتلة بهذه الزيارات للقيام بعملية مسخ لمفهوم الوطنية ، وتقريب فرنسا من قلوب الأهالي ، باعتبار أنها خلّصتهم من عبودية الأتراك . هذا عدا مظاهر الترهيب التي كانت تحفُّ بشخصياتها . لكن هذه الزيارات كانت تُواجَه من العامليين باللامبالاة . كما يظهر من وصف الشيخ أحمد رضا لزيارة غورو إلى النبطية في ٢/٢٥/ ١٩٢٠ :

"ورد يوم الاثنين أمر من حاكم صيدا العسكري,بأن تستعد النبطية وما حولها لاستقبال الجنرال غورو يوم الأربعاء الساعة التاسعة صباحاً. فنشر مدير الناحية الأمر وأبلغه إلى مختاري القرى بطريقة رسمية. ولم يأت من القرى المجاورة أحد حتى من أهل النبطية. لم يحضر الاستقبال سوى جماعة لا يزيد عددها على بضعة عشرة رجلاً من الوجهاء. (١)

أ- العرائض وجمع التواقيع:

الغاية الأساسية من هذه الزيارات ، هي التمهيد لحملة العرائض وجمع التواقيع ، التي حاولت فرنسا القيام بها ، بمساعدة المرتكزات التي كانت قد أوجدتها الجمعيات الفرنسية في جبل عامل . ولمّا كانت هذه الجمعيات عاجزة عن أن تكتسب مكانة لها في صفوف العامليين . وبالتالي

١ـ أحمد رضا, المرجع السابق /٧٣٤.

غير قادرة على تقديم خدمة فعالة على هذا الصعيد ، نظراً لضعف موقعها من ناحية ، ولتعاظم المدّ الوطني من ناحية ثانية . كان على فرنسا أن تعتمد على قواها الذاتية في جميع التواقيع . فأرسلت إلى مفوضيها ومديري نواحيها في المناطق أوامر محددة في هذا الشأن.

يقول الشيخ أحمد رضا:

" **ولكن هذا لم يُجـدِ نفعاً ، حسبما أفاد مدير ناحية النبطية الفرنسي . نظراً للروح السائدة في البلاد من التعلق بالملك فيصل وبالوحدة السورية ، والنفور من الالتحاق بلبنان.** (١)

يُلاحظ من هذا ، أن الموقف الشعبي عشية مؤتمر وادي الحجير كان لصالح الحركة الوطنية الاستقلالية . فلم يعُد أمام قوات الاحتلال إلا اللجوء إلى متنفذي جبل عامل من رجال دين وإقطاع سياسي . مستعملة معهم جميع الوسائل من الترغيب إلى الإكراه والتهديد ، في سبيل الحصول على هذه التواقيع . ونظرة سريعة إلى خارطة جبل عامل السياسية ، تُظهر أن مركز الثقل ينحصر في كامل بك الأسعد . وبالفعل فقد شكّل كامل بك قِبلةَ التوجه الفرنسي .

في مذكراته يتحدث الشيخ أحمد رضا عن موقف كامل بك ، في

١ــ نفسه .

اجتماع عُقد في آذار ١٩٢٠ ، بين أعيان البلاد على جسر الخردلي ، وبين حاكم النبطية ومرجعيون العسكريين .

قال:

" **فقال كامل بك للجانب الفرنسي : "إن العامليين يرفضون هذا الطلب ، ولا سيما الاعتراض والاحتجاج على ما قرره المؤتمر السوري من تنصيب الملك فيصل على سوريا لأنه هاشمي . وذلك من أخص تمنيات الشيعة**" . فعرضوا عليه اللائحة التي يطلبون توقيعها فقال : " **إن الشعب العاملي لا يقبلها , وأنا بصفتي رئيس هذه البلاد لا استطيع أن أفعل ما لا يريدونه ولا يذعنون لرياستي حينئذ . ولا سيما إذا كان فيه ما يخالف مبدأهم الديني . وارفضّ الاجتماع على غير ما يريد الفرنسيون**" . (١)

ونظراً لاهتمام السلطة الفرنسية الشديد بتوقيع العرائض ضد مقررات المؤتمر السوري ، فقد استدعت كامل بك الأسعد إلى بيروت ، بعد اللقاء السابق ، للتباحث معه في شأن العرائض المنشودة "**وقـد أكّد لي يوسف بك الزين متانة كامل بك في هذا الأمر ، وأنه لا يفعل ما يريدونه منه كيفما تقلبت الأحوال.**" (٢)

١ـ نفسه / ٧٣٥.
٢ ـ أيضاً /٧٣٧ .

هذا الشك الذي يبديه الشيخ رضا، ونلمحه بكلمة "**أكد لي يوسف بك الزين**" ، ظهر له مايُسوّغه . فقد تألف وفدٌ من الشيخ عبد الحسين صادق ومحمود بك الفضل وفضل بك الفضل للمباحثة مع الفرنسيين في شأن العرائض . وعدوا الجنرال غورو بأن يطلبوا من المؤتمر إلحاق جبل عامل بلبنان. وكتبوا بذلك معروضاً لـ(سان ريمو) ومعه آخر للجنرال غورو .

قال :

" والغريب أن الذين وقعوا هاتين العريضتين كان بعضهم بالأمس القريب يوقع على عكسها بواسطة الأمير إلى مؤتمر السلام . ولكنها القوة الغاشمة تفعل أمثال ذلك في مثل هذه الأحوال . ثم إن كامل بك استدعى المختارين (١) وكثيراً من الأهالي ، فقدموا ووقعوا العرائض المذكورة . وامتنع الشيخ عبد الحسين صادق عن إمضائها . وأمضاها بعض العلماء غيره. واعتذر بعضهم بأن ذلك كان حفظاً منهم لحياة كامل بك الأسعد. فيا لله وللمسلمين من هذه الأعذار" . (٢)

---

(١) ـ هذا الخبر أكده الحاج محمد وهبة من عيناتا (كان مختاراً سنة ١٩٢٠) إذ قال إن كامل بك عزم بل أقسم على قتله لجملة أسباب منها عدم إبلاغه أهالي قريته بأمر العرائض . جرت المقابلة في آذار ١٩٧٣.

(٢) ـ أحمد رضا, المرجع السابق, م٣٣, ج٣, ص٢٥٧.

نلاحظ أن فرنسا استطاعت بهذه الوسيلة أن تكسب موقعاً جديداً بانتزاعها صكوكاً ، تخولها أن تفرض في مؤتمر سان ريمو المنحى السياسي الذي ترتأيه لجبل عامل في دولة لبنان الكبير. وبذلك تكون قد انتزعت من يد الحكومة العربية مستمسكاً قوياً . وأوجدت ثغرة كبيرة في الوحدة السورية المنشودة ، بإسقاطها جبل عامل من مناطق السيطرة السياسية للحكومة العربية في دمشق .

من الواضح أنّ فرنسا قد استحصلت على هذا الموقع الجديد البالغ الأهميّة بمساعدة ودعم الإقطاع السياسي وبعض أطراف الإقطاع الديني ، اللذين كانا أقرب إلى الفرنسيين منهم إلى الحكومة العربية . ومن الغني عن البيان أنّ هذه المواقف المستجدة تخالف لا بل تناقض المواقف المتخذة في بداية الاحتلال .

وفي تصويره لهذا التذبذب في المواقف عند الإقطاع يقول السيد عبد الحسين شرف الدين : " **وكان لهؤلاء الإقطاعيين المتذبذبين شأنٌ في هذا العصيان ، كما كان لهم شأن في السعاية بالمخلصين . يلبسون منها وجوهاً ضعيفة عديدة . فهم معنا بوجه ولسان , ومع الفرنسيين بوجه ولسان ومع الأمير فيصل بوجه ولسان غير هذين.** " (١)

السيد شرف الدين: صفحات من حياتي , الألواح, العدد ٦/١٤.

هذ التذبذب في المواقف عند رجالات جبل عامل ، عدا أنّه ناتجٌ عن ظروف ذاتية تتعلق بطبيعة الإقطاع السياسي ومصالحه ، كان مدفوعاً بعاملين أساسيين:

١- الصراع الإقطاعي على السلطة في جبل عامل.

٢- أثر موقف الملك فيصل على رجالات جبل عامل.

١ـ الصراع الإقطاعي على السلطة :

غالباً ما كانت النظرة الوطنية الاستقلالية ، عند رجالات الإقطاع في جبل عامل ، تغور وراء المصالح الإقطاعية الضيقة : (الصراعات بين آل الأسعد والخليل وعسيران والزين والصلح والفضل) . حتى إن هذه المصالح كثيراً ما دفعت بعض الأطراف إلى مواقع الانصراف عن محاربة العدو الأول والمتمثل بسلطات الاحتلال ، إلى منازلة طرف إقطاعي آخر.

يقول محمد جابر: " **وكان العداء مستحكماً بين كامل بك الأسعد وآل**
الصلح . فلم يرُق له وجود رياض الصلح وحكومته ورفع سلطته عن جبل عامل." (١)

من هنا ، فإنّ مُسايرة سلطات الاحتلال ، من قِبَل طرف من أطراف

١- محمد جابر: تاريخ جبل عامل/٢٢٣.

الإقطاع السياسي ، معناه بالنسبة إليه ، إضافةُ طاقة دعم سياسية ، بل أحياناً عسكريّة ، إلى رصيده . تسمح له بالتالي بالتغلب على أخصامه من الإقطاعيين الآخرين .

٢ــ موقف الملك فيصل وأثره:

الأمر الثاني الذي أسهم في تذبذب الموقف في جبل عامل ، وزاد من سطحية رؤيتهم الوطنية ، هو نظرة رجالات جبل عامل إلى رجالات الحكومة العربية في دمشق وخاصة الملك فيصل . فقد كانت نظرةً تمحو الحد الفاصل بين الولاء العاطفي والولاء الوطني لصالح الأولى. وهذا يتبين من كلمة للسيد عبد الحسين شرف الدين:

" **ضمتني وفيصلاً ، فقيد الزعامة العربية ، ساحةُ الجهاد في سنة العشرين . فوقفت منه على ما كان يطير إليّ من اسم الفاتح المُظفّر وعبقرية القائد . يرفل بالراية العربية في ميادينها الشاقة . منبثقاً من مجد التاريخ ووعي الحاضر وأمل المستقبل . هذه الثلاث كانت تُميّز فيصلاً قبل أن نجتمع إليه في سنة العشرين . فلما التقينا على صوت النفير المجرجر، ونداء الوطن المهتاج ، رأيت الثلاث هذه أشياء من أشياء، تميز فيصلاً بعيني . فتجاوزه من حدود الرجولة إلى حدود البطولة.**"(١)

ـالسيد عبد الحسين شرف الدين: العروبة, العدد٥, ١٩٤٧بيروت/٩٤.

والنظرة ذاتها إلى فيصل نلمحها عند علامة الشيعة الأكبر السيد محسن الأمين . فهو يقول بعد أن يتحدث عن موقفه من وفد مؤتمر وادي الحجير إلى دمشق :

" **ولكني أبيت أن أرافق الوفد حتى استوثق من أنه يقتصر في القول على استشارة المليك ثم يعمل بما يشير به.** " (١)

من هنا يمكن رسم إطار لأبعاد الرؤية الوطنية في جبل عامل ، إذا ما عُرف بالمقابل ما يماثلها في دمشق. فالملك فيصل في ١٩١٩ وبداية ١٩٢٠ ، وهي الفترة الحرجة في حياة الحركة العربية ، لم يكُن قد حدّد منهجاً سياسياً واضحاً تجاه المحتلين والاحتلال . اللهم إلا إذا نحن اعتبرنا إن عدم تحديد منهج سياسي، من جانب فيصل ، منهجاً محدّداً فقد كان يتقلّب في بورصة الوعود والمقابلات والمؤتمرات المنعقدة ، سؤاءً في أوروبا أم في الشرق العربي . وغالباً ماكان يتخذ في نفس الفترة، وفي نفس الوقت ، خطين سياسيين متعارضين.

يقول محمد كرد علي عن فيصل بعد رجوعه من أوروبا في أيار ١٩١٩ :

" **فخطب في بيروت خطبةً رضي عنها الفرنساويون . ولمّا جاء**

---

١ ـ السيد محسن الأمين : مجلة العروبة : ٥ / ٨٥ .

خطب خطبةً تخالفها إجمالاً وتُرضي المنادين بالاستقلال التام الناجز"(١) .

إن عدم تحديد نتهج سياسي من جانب الملك فيصل ، وعدم مُصارحة الجماهير العربية ، كان يزيد من خطره عدم توضيح الأمور للشعب في تلك الفترة . خاصة وأن الأحداث كانت تتلاحق بشكل يفقد الجماهير قدرتها على رصد هذه الأحداث .

أما المقصود من كلمة توضيح الأمور في تلك الفترة ، فهو عدم تحديد مفهوم ثابت لفكرة الانتداب. يقول فيصل في آخر خطاب ألقاه في أيار ١٩٢٠ ، وفيه يتحدث عن الانتداب ومؤتمر سان ريمو، وبعد أن يحلّل الاتجاهات السياسية في دمشق تجاه المؤتمر، يحدد بأن هناك اتجاهين يختلفان فقط في درجة البأس(٢). ثـم ينتقل لمناقشة الاتجاه الذي يقول بأنه قد قُضي على العرب بعد المؤتمر. فعلى العرب والحالة هذه أن يدافعوا عن أنفسهم ليكونوا شرفاء ، فيقول :

" **بماذا قضى علينا؟ من المعلوم أنه اتُخذ قرارٌ يعترف باستقلال سوريا على ما يقال ، وجعلها تحت الانتداب . أمّا ما هي كيفيته ، وهل هو ما يقضي علينا أم لا ؟ فهذا ما يزال مجهولاً.**"

١ـ محمد كرد علي : خطط الشام , دمشق١٩٢٥ :١٧٢/٣ .

٢ـ قدري قلعجي:جيل الفداء، دار الكاتب العربي ،د.ت. / ٣٧٥.

" فيظهر من هذا أنه لاضير علينا حتى الآن وأن أبواب المذاكرات ما تزال مفتوحة لكلا الفريقين . ويجب أن نعلم أنه ينظر إلينا اليوم كأمة مستقلة." (١)

إن كلام الأمير فيصل عن الانتداب ، واستبشاره خيراً بهذه الصيغة السياسية لحكم سوريا ، أبعد من أن يكون قصر نظر وانخداع سياسيين . بل هو في الواقع تمويه مقصود . لأن الغاية الأساسية من الانتداب كانت قد توضّحت بشكل جلي في تلك الفترة . والواقع أن العالم أدرك حقيقة هذه الانتدابات أول ماأدركها من الخطاب الذي ألقاه اللورد كرزون وزير الخارجية البريطانية في مجلس اللوردات وأعلن في صراحة تُحـمد له ، أنّ الانتدابات حديث خرافة ، لأنها ليست سوى وسيلة لتوزيع البلدان المفتوحة بين المنتصرين . (٢)

بعد هذا نستطيع أن نفهم التذبذب عند رجالات جبل عامل . ذلك التذبذب الذي يصل على حد التناقض ، سواء في نظرتهم إلى سلطات الاحتلال الفرنسي ، أم للحركة العربية وللحركة الوطنية في جبل عامل بالذات.

---

١ ــ نفسه /٣٧٦ .

٢ ــ بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلاميّة ، ط. بيروت ١٩٥٦/ ٩٥ .

ازدياد فاعلية أعمال العصابات:

ازدادت فاعلية أعمال رجال العصابات عشية مؤتمر وادي الحجير. ومع اتخاذ هذه الأعمال بُعداً سياسياً جديداً أكثر وضوحاً من السابق ، فقد انتقلت العصابات في أعمالها من مرحلة المناوشات البسيطة مع قوات الاحتلال إلى مرحلة التصدي والمواجهة . وهذا أمر طبيعي بعد اغتنائها عددياً بازدياد العاملين فيها ، وباكتسابها الخبرة والمراس العسكريين من الوقائع السابقة مع المحتلين.

بالنسبة للناحية الأولى ، نرى أن أعمال العصابات عشية مؤتمر وادي الحجير كانت تغطي منطقة جبل عامل بأكملها . الشيخ أحمد رضا وجريدتا البشير ولسان العرب ينقلون إلينا ، طبعاً كلٌّ من وجهة نظره ، أعمالاً للعصابات وقعت في أقضية بنت جبيل وصور والنبطية ومرجعيون وحاصبيا ، بل وفي مناطق واقعة الآن تحت الاحتلال الاسرائيلي (أقرط) .

هذه الوقائع لا يمكن أن تقوم بها العصابات في أوقات متقاربة جداً ، إذا ما نحن أخذنا بعين الاعتبار صعوبات الانتقال آنذاك ، لو لم يكن لديها العناصر البشرية ، الموزّعة تكتيكيّاً بحيث تكون قادرة على القيام بهذه الأعمال في الوقت المناسب .

تُعدّد جريدة البشير في عدد واحد أعمالاً عسكريّة للعصابات ضدّ القوات الفرنسيّة حصلت في ١٧ و ١٨ و ١٩ و ٢٢ و ٢٣ و ٢٤ و ٢٥

نيسان (١). ومن الطبيعي أن تولد الصدامات المتكررة بين العصابات والجيش الفرنسي خبرات قتالية جديدة لدى أفرادها.

تطور المفهوم السياسي عند العصابات:

إن المتتبع لأعمال العصابات يرى أنها انتقلت من مرحلة الانفعال العاطفي تجاه واقع الاحتلال ، إلى مرحلة أكثر نضجاً ووضوحاً من الناحية السياسية .

ذلك أنّ هذه الأعمال كانت في بدايتها تمزج ما بين الرجولة والتحدي ، بالمفهوم البدائي ، وبين العمل الوطني . الأمرُ الذي كان يوقعها في زلات ومهاوي . تجعلها أقرب إلى أعمال اللصوصية ، منها إلى العمل الثوري المنظم .

ومع تفاعل رجال العصابات مع الجماهير،اغتنت أعمالهم العسكرية بمفاهيم سياسية ، ترفّعت بهم عمّا كانوا يزاولونه من أخطاء . ويذكر لنا التاريخ أعمالاً لهذه العصابات ، وخاصة في فترات عملها الأخيرة ، أي قبل مؤتمر وادي الحجير، تقرّبها من الفَرِق المنتظمة ، ذات السمات والأبعاد الثورية المحددة . منها ما ذكرته جريدة البشير في معرض تهجّمها على عصابة صادق الحمزة ، وتعدادها لأعمالها اللصوصية . فقالت :

---

١ ــ البشير : ٢٥٦٣ ، ٢٩ نيسان ١٩٢٠ .

" وخرج عبد الغني الدح ، مع اثنين من الجندرمة ، إلى تبنين لتحصيل أموال الحكومة . فقابلهم صادق ، وقبض على الخيل والمال والدفتر ، فأخذ الخيل لنفسه . أما المـال فعاد ووزعه على كل من كان جُمع منه ، طبقاً لما هو مذكور في الدفتر . وتهدد الأهلين بالويل إذا هم عادوا إلى دفع الضرائب للحكومة الفرنسية (١) .

فعمل صادق الحمزة هذا ، كما نلاحظ ، أبعد ما يكون عن اللصوصية . بل هو عمل سياسي بالدرجة الأولى . وإرجاعه الأموال لأصحابها يُبعده كثيراً عن أن يكون لصاً هدفه السرقة . والتصدي لمأموري الضرائب الفرنسيين وأخذه خيلهم أمرٌ مشروع ، لأن وجود المحتلين الفرنسيين وسيطرتهم غير شـرعي في الأصل .

ويروي الشيخ أحمد رضا ، عَرَضاً ، حادثة عن صادق الحمزة ، نستدل منها على طبيعة صادق الإنسانية غبّ قيامه بعمل عسكري . فبينما كان صادق يتربص خروج الجيش الفرنسي في ضاحية صور (المكان المعروف حالياً بالبص ، وبالضبط مكان مصلحة الكهرباء) في استحكام عسكري ، ومعه ستون من رجاله ما بين فرسان ومشاة ، أشار إليه أحد رجاله الدخول إلى صور ، لأن أحداً من الجيش لم يخرج ، فأبى معتذراً بأنـه

---

١ ـ البشير : ٣ نيسان ١٩٢٠ / ٣ .

إنما جاء لمحاربة القوة الفرنسية لا ليذعر الأهالي الآمنين . وإذا دخل البلدة أدخل الذعر عليهم بدخوله. (١)

وهناك شواهد كثيرة تؤيد هذه النظرة إلى عصابة صادق الحمزة .

منها ما نقله عنه علي محمد خليل من قرية عيترون (٢) ، وكان يعمل مع صادق حسب قوله . أن أحد رجال صادق قتل رجلاً من بلدة برعشيت يُسمى الحاج علي عاشور ليأخذ فرسه الأصيلة . فما كان من صادق إلا أن أمر بقتله في نفس المكان الذي قتل فيه الحاج علي عاشور.

وروى كذلك فياض حسن طالب من قرية كفرا (٣) ، وقد عمل مع صادق ، حادثةً تصدّى فيها رجال صادق , وكانوا جياعاً , لمكاري ينقل طعاماً على ظهر دابته , في منطقة وادي الدب , وكيف أن صادق عاقب رجاله و" **فرَجْاهم** (أراهم) **نجوم الظهر**" على حدّ قوله .

إن هذا الكلام عن أعمال صادق وعصابته , لايعني أن العصابات كانت فرقاً منتظمة تعي أبعاد حركتها وعياً كاملاً. لكن بالمقابل لانستطيع أن نطلق عليها النعوت التي أطلقتها الجرائد الموالية لفرنسا من عصابات أشقياء

---

١ ــ أحمد رضا: مذكرات للتاريخ, العرفان م٣٣ , ج١٠/ ١١١٤.
٢ـ جرت المقابلة في شباط ١٩٧٣.
٣ــ جرت المقابلة بالتاريخ نفسه .

ولصوص وقُطاع طرق . خاصة وأن هذه الجرائد كانت ، كما سنبيِّن ، تستقي معلوماتها عن أعمال العصابات من قوات الاحتلال .

تورد جريدة لسان الحال خبراً عن عصابة صادق تقول فيه :

" **في الثامن هذا الشهر دخلت عصابة صادق هنسي في الساعة الخامسة من الصباح إلى حدائق صور وقتلت سبعة من سكانها** " . (١)

فلنلاحظ في الخبر أن اسم صادق الحمزة تورده لسان الحال محرّفاً. فبدلاً من أن تقول "**صادق حمزة**" ، قالت "**صادق هنسي**" . وهذا أبعد من أن يكون خطأً مطبعياً أوخطأً بقراءة الرسالة الموفدة إليها، فيما لو كانت مكتوبة باللغة العربية . لأن هناك فرقاً شاسعاً من ناحية الكتابة واللفظ بالعربية بين كلمتي "هنسي" و"حمزه". وهذا الفرق ينحصر كثيراً إذا تصورنا أن الاسم كان مكتوباً باللغة الفرنسية . فكلمة HANSi قريبة الرسم جداً كتابة ولفظاً من كلمة HAMSi. فهذا دليلٌ قطعيّ على أن الخبرمُقتبَسٌ عن مصدر فرنسي .

ومع الإقرار ببعض ما تقوله هذه الجرائد ، فإن العصابات هي بالنهاية تعبير عن الشعور العام لدى العامليين تجاه الاحتلال الفرنسي . هذا ما ظهر جليّاً واضحاً في الالتفاف حول هذه العصابات وأشخاصها الذي هو بالنهاية التفافٌ حول الحركة العربية وحكومة دمشق .

١ـ لسان الحال : ٤٠٠ـ٨٠٥٠، ٢٠ أيار ١٩٢٠ / ٢ .

التطور العسكري لدى العصابات :

عشية الحجير كانت العصابات الوطنية العاملة في جبل عامل قد اغتنت بدفق معنوي وعسكري ، مكّنها بالتالي من الانتقال من خطّة (أضرب واهرب) إلى المواجهة الفعلية . هوذا ما نستنتجه من تتبُّع سير العمليات العسكرية ، التي كانت تقوم بها هذه العصابات ضد القوات الفرنسية أو بالعكس .

ففي بلاغٍ عسكريٍّ فرنسيٍّ صادرٍ في بيروت في ١٠ يناير ١٩٢٠ عن عمليات الجيش الفرنسي ضد العصابات ، تتحدث السلطات الفرنسية عن كيفية انتصارها على الثوارفي قرية الغجر والخيام والطيبة وكفرفيلا . ثم كيف غادرت القوة مرجعيون إلى جهة الخصاص أثناء تعقبها للثوار ، لإقرار الأمن في تلك الربوع . ومما يُذكر أن هذه العصابات مسلحة بالبنادق الحربية والرشاشات . وقد ألحقت الفرقة بها خسائر فادحة وضربتها ضربات موجعة . فكان ذلك خير أمثولة لها ولغيرها وعاد الأمن إلى نصابه في تلك الناحية : " **ويسوؤنا أن نقول أن الفرقة الفرنسية أصيبت بخسائر لا تتجاوز الخمسين بين قتيل وجريح . وإنها اضطرت إلى ترك ثلاث رشاشات في مستنقع الليطاني.**" (١)

١- أمين سعيد, ثورات العرب في القرن العشرين, دار الهلال, د.ت /١٠٢.

وبالرغم من جهد السلطات الفرنسية في تزيينها الانتصار لحملتها ، نرى أن القدرة لدى الثوار أقوى بكثير مما تحاول إظهاره . فإلحاق هذه الإصابات وكسب الأعتدة من جيش نظامي يمتلك وسائل قتال حديثة ، ينمّ عن حقيقة واحدة أكيدة هي قدرة الثوار على التصدي والمواجهة . ونظرتنا إلى هذه القدرة تزداد شمولاً إذا ما اطلعنا على حقيقة الخسائر الفرنسية في تلك الحملة ، حسب ما وردت في بيان تفصيلي آخر صادر عن أعمالها وخسائرها التي بلغت ٧٠ قتيلاً و١٧ أسيراً و١٧ رشاشاً ومدفعين جبليين . بشهادة بلاغ رسمي فرنسي في نشر بيروت.(١)

هذه القدرة العسكرية لدى الثوار سمحت لهم بتحقيق سيطرة كاملة على منطقة جبل عامل عشية انعقاد مؤتمر وادي الحجير.

يقول الشيخ أحمد رضا :

الأخبار الطارئة من جنوبي جبل عامل (بلاد بشارة) ، أن الثائرين قد ملكوا ناصية المنطقة ، وأن الحكومة لم يبق لها أدنى أثر ولا سلطة . حتى أن مأموري الضرائب والدرك لا يقدرون على التجوال فيها . وهي أشبه بحالة العصيان التام. (٢)

---

١ ــ نفسه .

٢ ـ أحمد رضا, مذكرات للتاريخ, العرفان, م٣٣, ج٨/٨٥٦.

ويتحدث أمين سعيد بشمولية أكثر عن سيطرة العصابات على جبل عامل في تلك الفترة فيقول: " **سيطرت** – أي العصابات – **على معظم قرى المنطقة ومحت كل أثر لنفوذ فرنسا**" (١) .

نلحظ من هذا أن العصابات في تلك الفترة قد شغلت حيّزاً مهماً في الإطار السياسي لجبل عامل . وهذا ما حدد كثيراً سياق الأحداث التالية.

الفوضى السياسية عند بعض العصابات:

إن الإمكانات السياسية المحدودة لدى العصابات ، وعدم قدرتها على إدارة شؤون البلاد المحلية ، أفسح المجال أمام الفوضى السياسية ، لأنّ غياب السلطة المركزية الموحدة عن جبل عامل ، وهي التي من الممكن أن تشكل وازعاً أمام الرغبات والأهواء والانحرافات التي قد تتولد ، سيؤدي في النهاية إلى بروز جماعات تحمل السلاح للسلب والنهب واقتناص الفرص . حتى أن بعض كبريات العصابات عصابة محمود الأحمد بزي كانت لا تتورع عن القيام بأعمال لا تمت لحركة الثورة بصلة.

حدّث فياض حسن طالب من قرية كفرا قال :

" **بينما كنت أسير مع محمود بزي بجوار قرية دبل المسيحية قال لي : سأُعيّنك وكيلاً على دبل . فقلت مازحاً : بتمون دبل ملك بيّك .**

---

١ ــ أمين سعيد : نفسه / ١٠١ .

عندها قال لي إذن سأعطيك ثماني ليرات ذهبية بدلاً من خمس في الشهر" (١) .

إن هذه النظرة لأملاك الآخرين عند زعيم عصابة يُحسب لها حساب تبيّن مدى ضآلة الحس الوطني عند بعض فرق العصابات . بحيث تعدّت القرى المسيحية لتطال القرى الإسلامية . فقد روى كثيرون أن محمود بزي حاصر قرية ياطر وأهلها مسلمون طالباً منها غرامة مائة ليرة ذهبية .

وفي هذا الموضوع عن أعمال العصابات يقول الشيخ أحمد رضا :

دخل بين عصابات الثوار جماعة خرجت عن الجادة ودخلت في الفوضى وأصبحت تلتهم الأخضر واليابس . ولا تتورع عن فعل ما لا يجوز في سبيل الأطماع الشخصية " .(٢)

والذي ساعد على كثرة هذه الأعمال توافُر السلاح عن طريق فلسطين . فقد كان السلاح في بلدة بنت جبيل يباع جهاراً كأيّ سلعة أخرى.

الظروف الاقتصادية والمعاشيّة عشية مؤتمر وادي الحجير:

من الطبيعي أن لا يخرج الوضع الاقتصادي والمعاشي من وتيرة التدهور التي كانت تسيطرعليه وعلى مجمل جوانب الحياة في جبل عامل .

١- جرى الحديث في آذار ١٩٧٣.

٢- أحمد رضا: مذكرات للتاريخ , العرفان, م٣٣, ج٨/ ١٠٨.

لأن الاحتلال وفقدان الأمن ينعكسان ضرراً وخراباً على قطاعات ومرافق الحياة الاقتصادية . فالحركة التجارية في المنطقة توقفت تماماً ، وخاصة فيما يتعلق بالاتجار الخارجي . وقد رأينا أمثلة كثيرة على تعرّض العصابات المسلمة أو المسيحية لكثير من التجار أثناء اتجارهم داخل المنطقة .

أما فيما يخصّ الحركة التجارية الداخلية فيمكن أن نعرف حالها من الوصف الذي تنقله البشير لسوق بنت جبيل :

" **ومما يستلفت النظر أنّ سوق بنت جبيل ، التي تُقام كل خميس ، فإنها أصبحت مجتمعاً للصوص من الجوار . وقد قرر المسيحيون أن لايشتركوا بها فيما بعد ، لأن الأمن مفقود تماماً فيها .(١)**

وفي القطاع الزراعي ، وهو القطاع الانتاجي الرئيس في المنطقة ، كثيراً ما كان يتعرض الفلاحون العاملون في حقولهم للسلب والنهب .

من هنا فقد ركدت الحياة الزراعية بدورها . وهذا التدهور الاقتصادي أصاب المسيحيين والمسلمين على حدٍّ سواء.

وتقول البشير في وصف أحوال المسيحيين:

" **إن الفلاحين المسيحيين ، المطارَدين الذين لجأوا إلى بلدتنا ، لا يجسرون حتى الآن الرجوع إلى قراهم ، لأن الأشقياء لا يزالون ينتابون**

١- البشير, ٢٥٥٩, ٢٠نيسان, ١٩٢٠ / ٣.

محلاتهم وينهبون كل ما تبقى لديهم من حبوب وعلف وأمتعة . وقد اصبحوا وهم بلا شغل ، وفي حالة تعسة من الفقر والضيق " . (١)

ويستطرد الشيخ أحمد رضا في تعداد حوادث السلب والنهب . ويحسُن بنا أن يذكر منها ما حدث عشية انعقاد المؤتمر:

ـ كان **بعض أهالي دبين هارباً ببقراته خوفاً من السّلب فتلقاه جماعة قيل إنهم عسكر، وقيل إنهم من أهل القليعة ، فسلبوا البقر وذهبوا به. (٢)**

ـــ نُهبت هذه الليلة مزرعة الحمى من قرية الشقيف. (٣)

ـــ هاجمت عصابة من الثائرين قرية الحمرا من الشقيف فاستاقوا بقرها مع رُعاتها.(٤)

والذي ساهم في تدهور الوضع الاقتصادي في جبل عامل ، أعمالُ الجيش الفرنسي. فكما يظهر من بعض الروايات، أنّه في في بعض المناطق كان يُحمّل الأهالي نفقات إقامته ، بنحوٍ يعجزون عن تلبية طلباته .

١ـ نفسه , ١٤ ك٢, ١٩٢٠/٢.

٢ـ الشيخ أحمد رضا, العرفان, م٣٣, ج٣, ص٢٥١.

٣ـ نفسه م٣٣, ج٩, ص٩٩٠.

٤ـ أيضا م٣٣, ج٥, ص٤٦٩.

ومن ذلك :

ـ زرتُ مساء اليوم العلامة الشيخ عبد الحسين صادق في بيته ، فأخبرني أن العسكر المرابط في الخيام يُرهق المسلمين ، خاصة من أهل قراها ، بفرض ما لايستطيعون من الغنم والبقر لطعام العسكر، ومن التبن والشعير لعلف خيولهم. (١)

ـ بلغنا أن العسكر الفرنسي سلب ثمانية أزواج بقر من كفركلا . وحرقوا ثلاثة بيوت للأهالي . وأخذوا دجاجاً كثيراً من دير ميماس ومن قرية الخربة (٢) .

ثم إن قوات الاحتلال الفرنسي كثيراً مااتّبعت أسلوب العقاب الجماعي في القرى التي كانت تساند الثوار . والاقتصاص منها ، بفرض غرامات جماعيّة على الأهالي دون تمييز ، غالباً ما تكون فوق طاقتهم .

واليوم هكذا تعمل الحكومة في بعض القرى التي لا تجاريها على سياستها . ولكنها تُغضي عن المعاملة بالمثل في قرى أخرى لغير المسلمين . (٣)

---

١. نفسه ، م٣٣, ج٣, ص٢٥١.

٢ـ أيضاً , م٣٣, ج٩, ص٩٩١.

٣ ـ أيضاً , م٣٣, ج٩ /٩٩١.

أما الأمثلة على هذا التصرف ، فيمكن أن نورد منها:

ـــ حُمّلت قرية الميريه مائة ليرة لأن دركياً قُتل في أرضها . والمقتول قال قبل وفاته أن أهل القرية بريئون من دمه ، لأنه عرف قاتله بعينه وهو أدهم خنجر. (١)

ـ فرضت الحكومة غرامة مالية على قرية زوطر الشرقية بجوار مزرعة الحمرا والحمى . وعهدي بزوطر أن أهلها لايملكون من المنقولات مايبلغ قدر هذه الغرامة،لأنهم في فقر مدقع . وذلك انتقاماً لمزرعتي الحمرا والحمى. (١)

الموقف الشعبي عشية مؤتمر وادي الحجير:

على الرغم من ذلك الظرف المُدلهمّ والصعوبات الكثيفة ، فقد حافظت القضية الوطنية في جبل عامل على أصالتها . ذلك مايبدو لنا واضحاً في احتضان أوسع الجماهير للعصابات الوطنية في المنطقة . وفي مقررات مؤتمر الحجير، التي سنتحدث عنها لاحقاً. ولم ينجح الاستنزاف الاقتصادي من قبل سلطات الاحتلال في أن يفتت الالتفاف الشعبي حول الحركة العربية ، أو أن يغير من نظرة العاملين للمحتلين الفرنسيين. وهذا ما وضح في استقبال أهل النبطية للجنرال غورو ، حيث لم يحضر لاستقباله كما رأينا إلا مجموعة لا تزيد عن بضعة عشر رجلاً من الوجهاء.

١–نفسه , م ٣٣, ج ٩٩١/٩.

يقول الشيخ أحمد رضا في نهاية وصفه لهذه الزيارة:

" **وقد بلغني أن المدير وقائد البوليس بالنبطية طلبا من شبان النبطية أن يحضروا الطبل لاستقبال الجنرال . فأجابهما الشبان أن الطبل مفخوت . وهكذا انفخت الطبل وتفرّق العشاق". (١)**

هذا عن نظرة العامليين للمحتلين .

أما فيما يخصّ التفافهم حول الحكومة العربية . فهذا ما بدا واضحاً في ردّ الفعل الشعبي تجاه منشور إعلان الاستقلال السوري وملكية الملك فيصل . فقد عمّت البهجة أنحاء جبل عامل.

يقول أحمد رضا :

" **كان لمنشور إعلان الاستقلال السوري وملكية فيصل الأول ابن الحسين على سوريا وقع عظيم في نفوس الناس . وكان الاحتفال في بلاد بشارة شاسعاً رائقاً والابتهاج عاماً . وكان المنتدَب لإعلان ذلك صادق الحمزة الزعيم الثائر . فقد دخل ناحية هونين واستقبله الناس بالبشرى" . (٢)**

***

١- أيضاً م٣٣, ج٥/٤٧٣.

٢ــ أيضاً م٣٣, ج٧/٧٣٦.

في هذه الظروف ، حيث تداخل الاندفاع من قبل أكثرية الناس في تأييدها للحكومة العربية مع الحـذر من قِبل الأقلية (المسيحيين) . وحيث تداخلت الأعمال العسكريّة المنتظمة ضد الفرنسيين مع أعمال السلب والنهب . وحيث تداخل التقلب في المواقف السياسية مع النظرة الثابتة لرجال العصابات تجاه واقع الاحتلال . في هذه الظروف عُقد مؤتمر وادي الحجير.

أسباب انعقاد مؤتمر وادي الحجير:

يحسن بنا قبل الخوض في أسباب انعقاد مؤتمر وادي الحجير أن نسترجع باختصار الأطراف الفاعلة في منطقة جبل عامل في تلك الفترة :

١ـ سلطات الاحتلال الفرنسي.وكانت تعمل جاهدة بمختلف الأساليب لما يضمن لها تفتيت وتعطيل رغبة سكان جبل عامل بالانضمام إلى سورية.

٢ـ الحكومة العربية ، وخطتها محاولة إبقاء جبل عامل ضمن مواقفه التي حددها سابقاً في المؤتمر السوري وفي استفتاء لجنة كينغ كراين.

٣ـ متنفذو جبل عامل . وهم في موقفهم السياسيّة أقرب إلى سلطة الاحتلال الفرنسي منهم إلى الحركة العربية .

٤ـ العصابات العاملة في المنطقة بشقّيها :

ـ الأول ذو الأبعاد الوطنية .

ـ الثاني الغارق في فوضى السّلب والنهب (وهذا الشّقّ يتناول العصابات المسيحية والشيعية على السواء).

٥ـ الجماهير العاملية . وهي في تطلُّع أكيد نحو الحكومة العربية والوحدة السورية وفي التفات حول رجال العصابات .

التفاعل بين هذه الأطراف الخمسة ، منفردة أو مجتمعة ، هو الذي كان وراء انعقاد مؤتمر وادي الحجير ، بوصفه الحلقة الأهمّ في سلسلة اجتماعات ، كان قد عقدها متنفّذو جبل عامل في ١٤ و١٥ و١٧ نيسان من سنة ١٩٢٠ ، بدعوة وبرئاسة كامل بك الأسعد . وهي بمجموعها بشكل أو بآخر تمهيدٌ للاجتماع الكبير في وادي الحجير، وأسبابها تدخل في سياق أسبابه .

واستقراء ما ساقته المصادر عن أسباب هذه الاجتماعات ، وعلى رأسها اجتماع الحجير، يمكّننا من إدراج هذه الأسباب ضمن نقاط ثلاثة حتّمت هذا الاجتماع:

أ ـ العلاقة بين متنفذي جبل عامل وعلى رأسهم كامل بك وبين العصابات.

ب ـ طلب رجالات سوريا من جبل عامل تحديد موقف واضح.

ج ـ تفاعلات العلاقات الاجتماعية بين فئات جبل عامل.

ومع أن بعض المصادر تحصر أسباب مؤتمر الحجير في نقطة واحدة من هذه النقاط . وتؤكد على أنها السبب الرئيسي والمحرّك الأول للمؤتمر، فإنه لا يمكن الذهاب معها في تصورها هذا ، لأن مؤتمر الحجير في واقعه إفراز لتداخل تلك العوامل وتطارحها مؤتلفة ، كما سيظهر من استعراضها.

أ- العلاقة بين متنفذي جبل عامل وبين العصابات:

إن تتبع الحوادث في الفترة التي تسبق مباشرة مؤتمر وادي الحجير يدل على أن العلاقات بين كامل بك الأسعد والعصابات كانت على شفير الانفجار . خاصة بعد توارد أخبار تقول إن كامل بك يساعد الفرنسيين ضد رجال العصابات . ومن ذلك ما نقله الشيخ أحمد رضا عن معركة بين العسكر الفرنسي وبين عصابة صادق والبدو . تكبّد فيها الفريق الأول ، حسبما قدّر بعض أهالي الجديدة ، مائتي قتيل . وقد اختلفت آراء الناس في هذه الحملة وأسبابها ، وفي تدخُّل كامل بك في أسبابها . فقيل أنه تعهد للفرنسيين بمطاردة العصابات وحفظ الأمن . وأنه استنجد بالعسكر الفرنسي لمّا هاجمت عصابة صادق الحمزة قرية جويّا لمطاردة المهاجمين , وإن العسكر هبّ على أثر استنجاده هذا .

وقيل إن العسكر لقي الكمين من العرب . وإنما كمنوا بعد علمهم أنهم سيُهاجمون . وقيل إن كامل بك كان على علمٍ بهذا الكمين ، وأنه هو الذي غرّر بالعسكر الافرنسي للقيام بهذه الحملة الخائبة .

وقيل غير ذلك. (١)

إن إلقاء الشبهة على موقف كامل بك الأسعد من العصابات ، يقود

١-أحمد رضا, مذكرات للتاريخ, العرفان, ج٥/٤٧١.

إلى التفكير بأنّ العلاقات بين الطرفين لم تكن على ما يرام ، وإن فيها ثغرة تسمح بإشاعة أن أحدهما يتربص بالآخر.

وثمّة دليل آخر يستنتج منه تعكر العلاقات بين الطرفين . هو ما ساقه محمد كرد علي عن تعهد الأمير فيصل بأن يقضي على العصابات التي كانت تعتدي على المنطقة الغربية التي يخفق عليها العلم الفرنسي. (١)

وقد حدّث الشيخ علي زريق (٢) بأن طعّان الخليل ، وهو من وجهاء عديسة ومن المقربين جداً من كامل بك الأسعد ، قال له إن فيصلاً قال لكامل بك وجوب عدم مقاومة جبل عامل للفرنسيين . وهذا الحديث ، والكلام هنا للشيخ علي ، أكّده الشيخ محمد رضا الشيبي من علماء النجف .

ذلك التوتر في العلاقات بين الطرفين هو الذي دفع كامل بك إلى عقد اجتماعات مع المتنفذين ، بدافع الحدّ من اتساع سيطرة العصابات على جبل عامل .

ففي ١٤ نيسان ١٩٢٠ عقد اجتماع في (هورا) ، منطقة مرجعيون ، بين كامل بك الأسعد والأعيان من جهة ، والمسيو شارنتيه من جهة أخرى ، أسفر عن تعيين حرسٍ وطني ، من المُتطوّعة مائتان . يعطى كل واحدٍ

١ـ محمد كرد علي, خطط الشام, ج٣, ص١٧٢.
٢ـ المقابلة جرت في آذار ١٩٧٣.

منهم عشر ليرات راتباً شهرياً , بقيادة قائدٍ فرنسي. ويعيّن لهم مراكز في البلاد لحفظ الأمن . وإذا حصل مهاجمة شرقية ، فالحكومة هي المكلفة بردّها. ولكن هل يتم ذلك ؟ أراهم أُخذوا بالتهويل ، وبإشاعة الأخبار أن الثوار يهاجمون النبطية وغيرها ، ليمهدوا السبل لقبول الأهالي لهذا الحرس الوطني. (١)

وفي اجتماع موسّع آخر للمتنفذين في جبل عامل ، ضم بكوات وأفندية الخيام وآل الأمين وآل فرحات وأعيان بنت جبيل وبعض العلماء ، طرح كامل بك فكرة إنشاء الحرس ، فعارض فيها أحد العلماء وهو الشيخ موسى قبلان معارضة شديدة . وهكذا طُويت الفكرة.

ظاهر هذه الاجتماعات تثبيت الأمن ومنع أفراد العصابات من التعدّي والسلب . ما دام الأمر كذلك ، فهناك سؤال يطرح نفسه : لماذا لم يُدعَ إلى هذه الاجتماعات أي طرف من العصابات الوطنية العاملة : صادق الحمزة ، أدهم خنجر؟ خاصة وإن هذين الطرفين هما القادران على ملاحقة الفوضويين والانتهازيين من رجال العصابات أكثر من أيّ قوة أخرى من المجتمعين أنفسهم .

١-أحمد رضا, مذكرات للتاريخ, العرفان, م٣٣, ج٨ /٨٥٨.

والحقيقةُ أنّ مؤتمرالحجير لم يخرج في إطاره العام على طبيعة هذه الاجتماعات . لولا أن نقطة مهمة طرأت على الموقف ، هي طلب رجالات سوريا من رجالات جبل عامل تحديد موقف بشأن الانضمام إلى سوريا.

ب-طلب حكومة دمشق من جبل عامل تحديد موقفه .

كان الجو السائد في جبل عامل آنذاك يوحي بأن حكومة دمشق لا بد وأن تُقدم على خطوة تحفظ لها جبل عامل كسند أساسي في الجانب الغربي . من هنا كانت الإشاعات عن غزو سوريّ لاحتلال بلاد بشارة جنوبي الليطاني ، بقيادة علي خلقي ، وأن خمسة من رؤساء القبائل يتخذون صفة جمعية في البلاد دائمة وبيدهم زمام الأمور(١) .

لكن الأمور ما لبثت أن تطورت، وتعدّى الأمر الإشاعة ، إلى طلب شبه رسمي ، هو أقرب إلى إنذارموجه إلى كامل بك الأسعد . إذ وفد عليه السيدان أحمد مريود وأسعد العاصي ، موفدين من قوّاد الثورة يقولان له إنه انقضى دور الأقوال وجاء دور الأعمال . فعلى جبل عامل أن يصرّح بخطته ومناهجه . فإما أن يكون معنا فليستعد للثورة ، وإما لايفعل فيكون علينا ، ويكون لنا وله شأن. (٢)

١-أحمد رضا: مذكرات للتاريخ, العرفان, م٣٣, ج٩, ص٨٥٨ .
٢- نفسه / ٩٨٩ .

يتحدث السيد عبد الحسين شرف الدين عن طلب الحكومة السورية يقول:

" **في هذه الفترة غلت مراجل الغيظ واضطربت الحال . وجاءت رُسُل الرؤساء من عشائر الفضل في المنطقة الشرقية يحملون لكامل بك الأسعد رسائل الثورة ويدعونه إلى خوض المعركة ويخيّرونه بين اثنتين: إما أن ينضم إليهم بجبل عامل، فيكون معهم حرباً على فرنسا. وإما أن يعتزل فيكون غرضاً لحربهم قبل فرنسا. ولم يجد هذا البلاغ استعداداً من كامل بك لأنه لم يكن مهيئاً له. فاستمهل الرسل وحمّلهم إلى أصحابهم رسالة ، أنه ليس بالمفرد بالرأي في عاملة من دون العلماء الذين لهم كلمتهم ولهم أتباعهم . فلا بد من أجل يضربه لميعاد ، يجتمع فيه بالعلماء والزعماء ويبحثون القضية على ضوء التفكير والتأمل.وهكذا كان" (١) .**

وتذهب جريدة البشير في تحديدها لأسباب الحجير مذهب سابقيها فتقول : "**حضر إلى كامل بك الأسعد وفد من عرب البادية يطلبون منه أن لا يتعارضهم أحد في احتلال منطقة الساحل . فجمع كامل بك وجوه البلاد والعلماء ورؤساء العشائر في وادي الحجير في ٢٤ الجاري نيسان" . (٢)**

١ـ السيد شرف الدين: صفحات من حياتي, الألواح, عدد ١٥, ص٢.

٢ـ جريدة البشير: ٢٥٩٣, ٢٩ نيسان, ١٩٢٠, ص٢.

إن طلب الحكومة السورية ، الذي يسميه السيد عبد الحسين شرف الدين : رغبة عشائر المنطقة الشرقية . ويسميه الشيخ أحمد رضا ، على لسان كامل الأسعد : موفدون من... . وجريدة البشير: وفد من عرب البادية ، لهو السبب الرئيسي الذي حتّم انعقاد مؤتمر الحجير . لكنّ طلب الحكومة السورية من جبل عامل تحديد موقف واضح ، هل هو من قبيل التشاور والاستئناس ، مع تحرّج الوضع أمام الحكومة العربية في دمشق ، أم أنّ في الأمر غرضاً آخر ؟

الواقع أن العلاقات بين الطرفين هي التي حتّمت هذا الطلب . خاصة وإن مجموعة من رجالات جبل عامل كانت تبتعد عن الحكومة العربية ، وتنحو منحى السياسة الفرنسية ، بوقوفها ضد العصابات الوطنية. ما أثار مخاوف رجالات سوريا ، وخاصة قواد الثورة في المنطقة الجنوبية الغربية من سوريا (الجولان) . لأن القضاء على حركة الثوار في منطقة جبل عامل معناه إزالة خط دفاعي صلب أمام قوات الثورة العربية في منطقة الجولان.

من هنا فالتسميات التي أُطلقت على طلب رجالات الثورة العربية في دمشق من كامل بك الأسعد هي في الحقيقة تعبيرات مهذبة مخفّفة لكلمات التهديد والوعيد . وهذا ممكن إذا ما عُرفت طبيعة العلاقة التي كانت قائمة آنذاك بين المير فاعور رئيس عشائر المنطقة الشرقية وكامل بك الأسعد.

يقول الشيخ أحمد رضا ، بعد أن يروي تواتر هجمات العصابات على خفراء من الدرك الحكومي في منطقة النبطية :

" **اهتم للأمر محمود بك الفضل شديد الاهتمام ، خشية أن تؤاخذه السلطة بجرائرمايحدث في ضاحية النبطية . وجاءني يريد أن يكتب بلسان كامل بك الأسعد ويطلب من الأمير فيصل أن يأمر قواد الثائرين بسلامة ناحيتنا من هذه المزعجات . فقلت له:الأحسن أن يكتب كامل بك نفسه إلى الأمير محمود الفاعوروهو مدير حركة الثوار في هذه الجهة . فقال إن الأمير محمود بلغ من الاندفاع في هذه الثورة درجة قصوى . وكيف يسمع من كامل بك وهو ناقم عليه تسليمه نفسه للفرنسيين . إن العرب لمّا مرّوا أمس بوادي الطافورة(** وادٍ قريب من الطّيبة **) رأوا رجلاً من هذه الجهات فسألوه:من أي بلد أنت؟ قال من أحد قرى النبطية. فقالوا: لو كنت من الطيبة لقتلناك لأن كامل بك باع نفسه للفرنسيين بدراهم معدودة" ١)**

وقد نقل كثيرون ممن عملوا مع العصابات ، وآخرون ممن كانت لهم صلات مع الجولان ، إنهم كثيراً ما سمعوا عرب المير فاعور يرددون:

والبيك (٢) بيّع مللتو   لمـن سمـع بفزيعنـا

١ـ أحمد رضا, مذكرات للتاريخ, العرفان, م٣٣, ج٥, ص٤٦٩.

٢ـ المقصود كامل الأسعد .

وان قـدّر الله نذبحو   لعين عيونـك ميرنا

إن تدهور العلاقات ، إذن ، بين رجالات الثورة في سوريا وبعض رجالات جبل عامل ، لتباين موقف هؤلاء وأولئك من الاحتلال الفرنسي ، هو الذي استدعى طلب تحديد موقف . والواقع أن هذا الطلب يحتل ذروة تصارع الأحداث في المنطقة .

ج ـ طبيعة العلاقات الاجتماعية في جبل عامل:

يرى حسن سليمان في انعقاد مؤتمر الحجير إفرازاً لتفاعلات اجتماعية تعتملُ في جبل عامل . حتّمت بروز علاقات جديدة بين أطراف الإقطاع السياسي من جهة ، وبين جماهير الفلاحين من أُخرى . دفعت بالإقطاع للالتفاف والتماسك ، للوقوف في وجه حركة العصابات ، ذات الهويّة الوطنية الاجتماعية. (١)

والعودة قليلاً إلى الوراء ، ودراسة العلاقات التي كانت قائمة بين الإقطاعي والفلاح في جبل عامل ، تعطي هذا الرأي الذي يسوقه حسن سليمان حجماً بيّنا. وبالطبع لم تكن تلك العلاقة في صالح الفلاح أبداً . فالسّمة الأساسية للعلاقات الاجتماعية أثناء الحرب العالمية الأولى ، كانت تغـوُّل القهـر السياسي والظلـم الاجتماعـي لجماهيـر الفلاحيـن ، مـن قِبَل

١ـ مخطوطة حسن سليمان.

الإقطاعيين والحكم العثماني . والذي كشف هذه العلاقة بوضوح ، وأضاف إليها بعداً مأساوياً أعمق ، الخراب الاقتصادي الشامل أثناء فترة الحرب . الذي أدى إلى المجاعة المشهورة .

يقول السيد عبد الحسين شرف الدين في وصف تلك الحالة :

"فرُبَّ عرض مصون كان يومئذ يبذل بأكمله . ورُب مكتبة حافلة بنفائس الكتب بيعت بمُدٍّ من الطعام . وكم من أرض واسعة شُريت بتافه من الدقيق (١) .

ومع نهاية الحرب العالمية الأولى وسقوط الدولة العثمانية ، غرقت البلاد في فوضى سياسية ، أدت إلى تزعزع مواقع الاقطاعيين الإدارية والسياسية والاجتماعية . وذلك مافتح ثغرة تسلّل منها النضال الفلاحي ضد الاقطاع . تدفعه الحالة المعاشيّة السيئة المُتردّية ، التي كانت تُخيّم على واقع الفلاحين . وقد وجدت الحركة الفلاحية في سقوط السلطة السياسية . وفي حالة الفوضى الشاملة ، فرصةً للنهوض والانطلاق , ساعدت تغذية العصابات الوطنية العاملة في المنطقة .

من هنا اتخذت حركة العصابات مطامح اجتماعية ووطنية في آن معاً. وكان رجال العصابات بدورهم يتبنّون مطالب الفلاحين، من تمنُّع

١ـ السيد شرف الدين, صفحات من حياتي, مجلة الألواح, عدد ١٤, ص٤.

عن دفع الضرائب ، وتمرد على الولاء الإقطاعي ، خاصة بعد وقوف الإقطاعيين ضد رجال الحركة الوطنية.

وأمام اتساع نشاط الثوار وتصاعد تأثيرهم في الميادين العسكرية والسياسية والاجتماعية ، أدرك الإقطاع السياسي الأخطار الناجمة عن خُلوّ الساحة السياسية في جبل عامل أمام فصيل العصابات . فتداعى هؤلاء إلى عقد مؤتمر الحجير للوقوف في وجه تنامي الثوار . لما يشكله هذا التنامي من تأثير على مستقبل وجودهم السياسي والاجتماعي.

هنا يبرز سؤال: مادام مؤتمر وادي الحجير تجمّعاً إقطاعيّاً , فما هو تفسيرنا لحضور صادق الحمزة وأدهم الخنجر المؤتمر؟

يجيب حسن سليمان عن هذا السؤال بقوله:

" إن الحجم السياسي الذي اكتسبته حركة الثوار في جبل عامل لم يكن يسمح لأحد بأن يتجاهلها ، لاقترانها بتأييد الفلاحين في الداخل ، وقطاعات الثُّوار العاملة في المنطقة الجنوبية الغربية من سورية (الجولان) " .

ثم إن خطة الإقطاعيين في مؤتمر الحجير كانت تتجه في مسريين :

ــ احتواء حركة الثوار عن طريق إدخالها في لعبة المساومات السياسية.

ـ زرع الانقسام والتباعد ، بين تطلعات الثوار الوطنية وجماهير العاملين, بحَرف هؤلاء عن مفهوم الوطنية عن طريق تسعير المشاعر الدينية. وذلك لضرب حركة الثوار من الداخل (١) . سيما وإن الأخبار تتوارد عن تصرفات بعض من لا أخلاق لهم من سفهاء المسيحيين ، حسب تعبير الشيخ أحمد رضا ، وعن تعرضهم للدين الإسلامي بالشتم والإهانة ، وخاصة تعرضهم لشخص النبي محمد (ص) .

***

في هذه النقاط الثلاث تتدرج أسباب مؤتمر الحجير. ولا يمكننا في الواقع تغليب أية نقطة على أخرى ، فيما لو أردنا أن نضع سُلّماً بأولويات الأسباب . لأن هذه النقاط كانت متداخلة بحيث تشكل كل واحدة رافداً من الأخرى.

---

١ ـ مخطوطة حسن سليمان .

الفصل الثالث

وقائع مؤتمر وادي الحجير

١-لماذا عُقد المؤتمر في وادي الحجير؟

قبل الدخول في مؤتمر وادي الحجير, تستوقف الباحث نقطة ذات بال, تتعلق باختيار وادي الحجير(١) غير الآهل مكاناً لانعقاد المؤتمر, رغم الصعوبات الجمّة المتأتية من عدم توفر الاسباب الأوليّة للإجتماع : (قاعة للاجتماع ، أمكنة للراحة ، مكان وأدوات الطعام) خاصة وأن الحضورتعدّى العلماء والأعلام في جبل عامل ليشمل فئات شعبية .

١- وادي الحجير مجرى نهر صغير من روافد الليطاني, يبعد ١٥كلم عن النبطية إلى جهة الجنوب, ويتوسط تقريباً منطقة جبل عامل, وله أهمية تاريخية فقد جرت فيه سنة ١١٠٢هـ/١٦٩٠م واقعة مشهورة بين الدروز والشيعة, يقول يوسف خطار أبو شقرا في الحركات في تاريخ لبنان ص١٦١ بعد أن يتحدث عن تحصن المتاولة داخل الوادي ولما أصبح الدروز مرابطين طرف الوادي وكان كثير الأشجار ملتف النبات, تقدموا من الجانبين ضاغطين على أخصامهم الذين يأوون إلى الكهوف والمغاور, ثم ألقوا النار في تلك الأشجار فاستعرت استعاراً, فاضطر المختبئون للبروز والانكشاف, فأمكن للدروز تتبعهم وإحراز النصر عليهم .
وكثير ما تغنى الشعراء في جبل عامل بوادي الحجير:

من قصيدة للشيخ محمد علي خاتون:

هذا الحجيـر فقف وروّ غليـلا   واحبس ركابك في رباه طويلا
نهر يزول صدى القلوب بـمـائه   فاق الفـرات محاسنا والـنيــلا

ذلك التساؤل يزداد حدةً إذا نحن نظرنا للأمر من زاويته السياسيّة . إذ ان انعقاد المؤتمر في مركز ثقل أي زعيم سياسي في حبل عامل ، معناه تغذية رصيده الشعبي بشحنات وطنيّة كبيرة .

فلماذا لم ينعقد المؤتمر في الطيبة ، مثلاً ، وهي حاضرة كامل بك الأسعد ، أو في النبطيّة حاضرة يوسف بك الزين وآل الفضل ، أو في صور حاضرة الحاج إسماعيل الخليل ، أو في بنت جبيل حاضرة الحاج محمد سعيد بزّي ؟

قد يكون الجواب أن وجود زعماء العصابات : صادق الحمزة ، أدهم خنجر ، محمود الأحمد ، قد فرض انعقاد المؤتمر

ــ تشدوالبلابل والهزار بروضه ... فوق الخمائل بكرة وأصيلا
ولئن أضلّك حالك عن أرضه ... تجد الأريج إلى ثراه دليلا
أو نابك الحر الشديد فعج إلى الـ ... هضبات منه واتخذه مقيلا
وادٍ سقته المعصرات وأمطرت ... فيه السحاب المرزمات طويلا

ومن قصيدة للسيد محسن الأمين:

وادي الحجير سقاك وكّاف الحيا ... كم فيك للأبصار من مستمتع
مذ أظهرت فيك الطبيعة رونقاً ... يبدو فيفضح شيمة المتطبع
جمعت من الأغصان فيك بواسق ... أمثالها بسواك لم تتجمع
والطير تشدو في ذرى أغصانه ... باللحن بين مُردّد ومُرجِّع
وادٍ حكت أزهاره ورياضه ... وجهاً من الحسناء غير مقنّع
من نرجس غض كأن عيونه ... يرقين هجمة ناظر متطلع
وإذا النسيم سرت على نقل به ... فبغير نشر المسك لم يتضوّع
كم قد مررت بذلك الوادي فلم ... أملك صباباتي وأصحابي معي

في منطقة لاتوجد فيها قوّات فرنسيّة ، فهؤلاء لايستطيعون الدخول جهاراً النبطيّة أو صور أو بنت جبيل أو الطيّبة .

لكنّ هذا الجواب لاينفي التساؤل ، بل نراه يطرحه من زاوية ثانية .

لماذا لم ينعقد في أية قريةٍ من القرى الداخليّة ، التي تتوسط أقضية الجنوب الأربعة : صور ، بنت جبيل ، النبطية ، مرجعيون ، حيث ثمّة صعوبة في وصول الجيش الفرنسي . ومن قُراها : معركة ، باريش ، قاقعيّة الجسر ، الغندورية ، دير كيفا ، صريفا ؟ (هذه القرى قريبة من وادي الحجير) . ويمتلك بعضها آل الأسعد وآل الخليل وآل الزين .

يُجيب عن هذا السؤال مفتي صور السيد محمد جواد شرف الدين ، حيث قال لي بنفسه ، إنّ المؤتمر إنما عُقد في وادي الحجير "**حتى لا تكون هناك إثـرة من قِبَل زعيم بالنسبة للآخرين**" (١) .

هناك مقولة ثانية ترى أنّ انعقاد المؤتمر في وادي الحجير بالخصوص ، الذي كان تحت سيطرة الثُّوّار قد تمّ بناءً على طلبهم

---

(١) مقابلة معه في صور بتاريخ شهر نيسان ١٩٧٣ .

وإصرارهم (١) على رفض عقد المؤتمر في الطيبة ، لتفويت الفرصة على الاقطاعيين من جني مكسب سياسي من عقده في الطيبة (٢) .

٢ــ المشتركون في المؤتمر .

كان المؤتمر تظاهرة سياسيةهائلة . حشد فيها كل زعيم أو طرف سياسي في جبل عامل أنصاره . وبذلك تعدّى الإطار المرسوم له . حتى لم يبقَ كائن قادر على السير أو الركوب إلا وشدّ الرحال إلى الوادي (٣) .

يصف محمد علي الحوماني الحضور في المؤتمر ، في معرض مناقشته للسيد عبد الحسين شرف الدين ، بقوله :

" " أتذكرُ يومَ اجتماعكم لمؤتمر الحجير ؟ لقد شهدته بنفسي

---

(١) يؤيد شبيب قطيش (من أركان حركة صادق . وحُكم عليه بالإعدام ، وسُجن في بيت الدين ومرجعيون وراشيا . لكنه نجح في الهرب) هذا الرأي . فقد أفاد بأن الثوار رفضوا عقد المؤتمر في الطيبة لتفويت الفرصة على الإقطاعيين . نظراً للحساسيّة الشديدة بينهم وبين كامل بك الأسعد . وأصرّوا على عقده في الحجير ، لأنها نحت سلطتهم ، ويعتبرونها منطقة مُحرّرة .

(٢) مقابلة جرت معه في شهر نيسان ١٩٧٣ .

(٣) أخبرني الشيخ عبد الله عزّ الدين ، من قرية كفرا قضاء بنت جبيل ، أن "العالَم كانت كالنمل ، والدنيا مثل يوم القيامة" .

، ورأيتُ كلَّ عالمٍ وزعيم ورده دون أن يحسّ الحضورُ بوروده ، لكثرة ما ازدحم فيه من الخلق . حتى أوشكت ركابك أن تحلّ فيه . حسبنا أنّ الأرض قد تزلزلت والسماء أطبقت فوقنا ، والجبال تقصّفت ، لِما يصكّ الأسماع من رعود ، ويخطف الابصار من بُروق . وذهل الناس من هول ما رأوا وما سمعوا . حتى حسبتهم سكارى وما هم بسكارى" .

" ولمّا تكشّف هذا الرّهج المعقود فوق الوادي ، برزتَ من تحته كالبدر ينشقّ عنه الغمام ليلةَ تمّه . وإذا بالقسطل المعقود فوقك تُثيره سنابك الخيل المُحدقة بك . وإذا بالرعود القاصفة والبروق الخاطفة ، ما تبعثه البنادقُ والحراب المُشرعة حولك . لم يبقَ في الوادي، وهو يضمّ الأُلوف ، فردٌ واحدٌ لم يهرع إلى استقبالك ، ويتشوّف إلى ركابك . حتى إذا التقيتَ زملاءك العلماء ، وصدى البنادق ل يزال يُدوّي في سماء الوادي ، أراد العلامة الحاريصي أن يُخفّف منهوس الفرسان ، فعارضتَه بقولك : دعهم في حماسهم . ولمّا جلستَ في خيمة العلماء المضروبة في قلب الوادي ، حفّ بك هؤلاء ، وتهافت الحقل المشهود عليك . وفيهم الشيخ والشاب والجاهل والعالم . كلهم يُحدق بك ويستمع إليك . وأنت مندفعٌ تخطب فيهم كالسّيل ، تبعث فيهم الحميّة . فتثور النّخوة في

رؤوسهم حتى تكاد تتطاير من أعينهم شرراً . وأنت دائبٌ فيهم ، تحرضهم على الجهاد في سبيل الحق ...... " (١)

إذن ، فقد لبّت الدعوة جميع الهيئات في جبل عامل ، من علماء وأعلام وأدباء وجماهير . ويحسُنُ هنا ذكر مَن استطعنا الوقوف على حضورهم :

<u>علماء الدين :</u>

السيد عبد الحسين شرف الدين ، السيد عبد الحسين نور الدين ، السيد عبد الحسين محمود ، الشيخ حسين مغنية ، السيد جواد مرتضى ، الشيخ موسى قبلان ، الشيخ يوسف الفقيه ، الشيخ عز الدين علي عز الدين ، الشيخ حسين سليمان .

<u>الأعـلام :</u>

كامل بك الأسعد ، عبد اللطيف بك الأسعد ، محمد بك التامر ، محمود بك الفضل ، محمد بك الفضل ، الحاج اسماعيل يحي الخطيب ، الحاج عبد الحسين بزّي ، عبد الحميد بزّي ، الحاج خليل عبد الله ، سعد الدين فرحات ، محمد أسعد أبو خليل ، توفيق حلاوه ، محمود مراد ، الحاج محمد وهبه ، الشيخ عبد الله عز الدين ، حسن مهنّا .

---

(١) محمد علي الحوماني : مجلة العروبة ، العدد٢٠ / ٢٦ .

الأدبـــاء :

الشيخ أحمد رضا ، الشيخ سليمان ظاهر ، الشيخ عبد الحسين ظاهر ، محمد جابر آل صفا ، محمد علي الحوماني .

قُـوّاد العصابات

صادق الحمزة ، أدهم بك خنجر ، محمود الأحمد بزّي .

٣ــ وقائع المؤتمر:

ترأس المؤتمر كامل بك الأسعد ، لأنه الزعيم الوحيد القادر على جمع أعيان جبل عامل وزعمائه ، بصفته الأول الذي لا ترُدُّ له كلمة . هذا عدا كونه طُلب منه شخصياً تحديد الموقف السياسي لجبل عامل من قبل رجالات الحكومة السورية.

افتتح المؤتمر السيد عبد الحسين شرف الدين , مستهلاً حديثه عن حادثة وقعت في صور في ١٨ نيسان ، أي قبل انعقاد المؤتمر بستة أيام، بين متطوّعة من العسكر اللبنانيين وأهل مدينة صور. كادت أن تؤدي إلى كارثة كبرى (١), لأن الأمر تطور واتخذ صبغة طائفية بين المسلمين والمسيحيين, حتى إن المتطوعة المسيحيين لم يتحاشوا القذف في حق النبي،

---

(١) تفاصيل وافية عن الحادثة, : جريدة البشير, العدد ٢٥٥٢, ٢٩ نيسان ١٩٢٠ و مجلة العرفان, م٣٣, ج ٩, ص٩٨٨.

بالتصريح باسمه علناً . ويعتقد الكثيرون أن عملهم كانوا مدبراً بمعرفة حاكم صور الفرنسي أو بعض رجاله . لأن السلطة الفرنسية لم تقف من جنودها موقفاً حازماً ، بل اكتفت بحصر المسؤولية بأحدهم ، وحكمت عليه بالسجن لمدة أسبوع .

كان خطاب السيد عبد الحسين مطولاً ومرتجلاً. من هنا كانت صعوبة تدوينه بأكمله . وقد استحصلتُ على مقاطع منه من نجله السيد جعفر شرف الدين , وفيها يقول :

" لله أحمد في السراء والضراء, استتماماً لنعمته, والحمد لفضله . وإياه أشكر في الشدة والرخاء ، استسلاماً لعزته ، ولشكر طوله .

أحمده وأشكره كما هو أهله . وأسأله تسهيل ما يصعب حمله، وتعليم ما لا يطاق جهله. واستعين به على القيام بما يحسن في الدنيا ذكره ويخلد في الآخرة أجره . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً خير نبي أرسله وعلى العالمين اصطفاه وفضله . صلى الله عليه وعلى آله ، الذين حملوا ما عن الله حَمَلَه ، وعقلوا ما عنه عقله . ولذا قرنهم بمحكم الكتاب وجعلهم قدوة لأولي الألباب . بهم نقتدي وإن عزت القدوة ، وطريقهم نسلك وإن عزّت العقبات . صلوات الله عليهم ما هفت قلوبنا إليهم . أئمة الهدى ومصابيح الدجى . ينيرون بصائرنا كلما ارجحنّت الخطوب ، ويفتحون أبصارنا كلما ادلهمّت الدروب ، كمشكاة فيها مصباح ، المصباح

في زجاجة, الزجاجة كأنها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية . يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار . نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء

اخواني أعلام الأمة:

إننا اليوم وفي هذا المفترق الخطير ، أشد حاجة من أي وقت إلى الاعتصام بحبلهم ، والسير على نهجهم . فإما عزة لا تفصم أو ذلة لا ترحم. إما حياة حرة أو هوان تهدر في حمأته إنسانية الإنسان . إما استقلال دون وصاية أو استعباد نكون في ظله كالأيتام على مأدبة اللئام.

أيها الفرسان المناجيد

إن لهذا المؤتمر ما بعده . وسيطبق نبؤه الآفاق السورية ، ويتجاوب صداه في الأقطار العربية . ويتجاوزها إلى عصبة الأمم وسائر المحافل الدولية . وقد امتدت به إليكم الأعناق ، وشخصت الأبصار تطلعاً وترقباً . فانظروا ما أنتم اليوم فاعلون .

ألا وإن جبل عامل بعد هذا المؤتمر بين أمرين : عز لا تُفصم عروته ولا تُقرع مروته ، أو ذل تهاوت معه كواكب السعد ، وتقوّض له سرادق المجد . فإن نبذتم الأهواء الشخصية ظهرياً وآثرتم شرف القضية وقدس الهدف ، فلنكونن في حوز لا يفصم ، وتكون بلادكم في حمى لا يقحم . أما إذا غلبكم الهوى ، فلنكونن مذقة الشارب، ونهزة الطامع , وقبسة

العجلان ، أمام قوة العدو وشدة الفتن وتظاهر الزمان.

يا فتيان الحمية المغاوير:

الدين النصيحة, ألا أدلكم على أمر إن فعلتموه انتصرتم؟

فوّتوا على الدخيل الغاصب برباطة الجأش فرصته . وأخمدوا بالصبر الجميل فتنته . فإنه والله ما سلّح فريقاً على آخر إلا ليثير الفتنة الطائفية ويشعل الحرب الأهلية . حتى إذا صدق زعمه وتحقق حلمه ، استقر في البلاد بحجة حماية الأقليات .

ألا وإن النصارى اخوانكم في الله وفي الدين وفي المصير. فأحبّوا لهم ما تحبونه لأنفسكم . حافظوا على أرواحهم وأموالهم كما تحافظون على أرواحكم وأموالكم . وبذلك تحبطون المؤامرة وتخمدون الفتنة ، وتطبّقون تعاليم دينكم وسنة نبيكم . و(لتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهباناً وإنهم لا يستكبرون) . صدق الله العظيم .

بهذا السلوك ياأبنائي الأعزاء دون غيره تردون كيد الفرنسيين إلى نحورهم ، وتعيدون جحافلهم إلى جحورهم ، وتنعمون بالحرية لا يتطاول بعدها إليكم متطاول.

أيها المؤتمرون : علماء أعلاماً وسُراة كراماً وفرساناً مناجيذ وفتياناً مغاوير:

إن هذا المؤتمر يرفض الحماية والوصاية ، ويأبى إلا الاستقلال التام الناجز المعتمر تاج فيصل العرب عاهلاً مؤهلاً وقائداً محجلاً . يُقيم حكومة شرعية تجعل من الوطن جبهة منيعة ، ينحدر عنه السيل ولا يرقى إليه الطير.

وهذا زعيم جبل عامل وبدره الكامل قد أرهف للجهاد معكم عزمه، وحشد لبلوغ الهدف عدته . فاركبوا معه كل صعب وذلول ، صادقي العزائم ، متساهمي الوفاء . وما التوفيق إلا بالله يؤتي النصر ما يشاء عليه توكلناوإليه المصير| .

وبعد أن انهى السيد عبد الحسين شرف الدين خطابه أمام الجماهير المحتشدة في وادي الحجير دخل كبار الحضور إلى سرادق خاص ، أُعـدّ قاعة للاجتماع , حيث شرع كامل بك الأسعد في الحديث عن الغاية من عقد الاجتماع . وبعد ذلك بدأت المداولات ، حيث اتُّخذت مقررات المؤتمر.

٤ ــ مقررات المؤتمر:

تندرج مقررات مؤتمر وادي الحجير في نقاط ثلاث:

أ- إرسال وفد إلى الشام:

اقترح كامل بك إرسال وفد عاملي إلى الشام ليفاوض الملك بأمر احتلال جبل عامل من قبل القوات العربية ، وتأخير ذلك حتى انتهاء الحصاد .

يقول الشيخ أحمد رضا:

"**وبعد المداولة فيه** (أي برأي كامل بك) **قرر القوم صوابية هذا الرأي وضرورة إرسال الوفد . وانتخبوا له العلامة كبير العلماء الشرعيين الشيخ حسين مغنية ، فاعتذر الشيخ بعجزه . فانتخب المؤتمر السيد عبد الحسين آل شرف الدين والسيد عبد الحسين نور الدين لهذه المهمة في دمشق . يجتمعان بعلامة الشيعة الأكبر السيد محسن الأمين . ويقوم هؤلاء الأعلام الثلاثة بمفاوضة جلالة الملك فيصل باسم العامليين. (١)**

ما يسوقه الشيخ أحمد رضا عن أسماء أعضاء الوفد لايتفق مع ما يقوله الشيخ علي الزين . إذ أن هذا يلحق به محمد بك سهيل . أما السيد جواد شرف الدين، فبالإضافة إلى هؤلاء ، يضمّن الوفد الحاج خليل عبد الله.

وبصدد الوفد تقول جريدة البشير:" ارتأى المؤتمر ان يذهب إلى الشام وفد يؤلف من بعض العلماء والبكوات (٢) . ومنهم السيد عبد الحسين شرف الدين عالم صور، ويوسف بك الزين من صيدا ، ليقفوا على

١ـ أحمد رضا, مذكرات للتاريخ, العرفان م٣٣, ج٩, ص ٩٨٩.

٢ـ تعود جريدة البشير في العدد ٢٥٥٦, ٦ أيار ٣/١٩٢٠ لتجعل الوفد من أربعة علماء دون أن تسميهم:" **تقرر بآخر اجتماع المتاولة سفر أربعة علماء منهم إلى الشام للمخابرة مع الأمير فيصل بخصوص الحوادث التي تقع هنا**" .

حقيقة نيّات الحكومة العربية. (١)

قد يكون مَرَدّ الخلا ف في تسمية أعضاء وفد المؤتمر إلى الشام (٢) إلى أن المنتدبيَن بإجماع المصادر ، السيد عبد الحسين شرف الدين والسيد عبد الحسين نور الدين ، لم يذهبا بمفردهما إلى الشام . بل واكبهما جماعة من الوجهاء الذين حضروا المؤتمر، على سبيل المشورة وأخذ الرأي في الشام . هوذا ما أوقع مؤرخي المؤتمر في حيرة أثناء تعدادهم لأعضاء الوفد ، فخلطوا بين المندوب الأصيل وبين المرافق.

ب-مقررات متعلقة بالوضع السياسي لجبل عامل: (٢)

النقصُ الأساسي في بحث مقررات مؤتمر الحجير سببه عدم الحصول على ديباجة مقررات المؤتمر بنصها الأصلي . فهي التي من المؤكد أنها قد تطرقت للوضع السياسي للحكومة العربية في سوريا وعلاقتها مع الحلفاء ، وللوضع السياسي الداخلي في جبل عامل . خاصة وإن الـذيـن تولّـوا صياغتها أعلام فكر ووطنية ، كالشيخين أحمد رضا وسليمان

١- جريدة البشير, ١٥٥٣, ٢٩نيسان ١٩٢٠, ص٣.

٢ ـ بالرغم من إجماع المصادر على عدم وجود كامل بك في عداد الوفد بل إن بعضها ينفي ذلك ، فإن الشيخ فهد الصعبي يصر على تسمية كامل بك في عداد الوفد . ويقول إنه نزل في الشام عند آل الجيرودي .

ظاهر. (١). من هنا فالمصادر الأساسية لمقررات مؤتمر الحجير تنحصر في ما ذكره الشيخ أحمد رضا ومحمد جابر.

يقول الشيخ أحمد رضا :

" **ثم قررت الهيئة العاملة في المؤتمر أن يقدم الوفد باسم المؤتمرين وجبل عامل التهنئة لملك سوريا ، بما قـرره المؤتمر السوري من إعلان الاستقلال وملكية فيصل . ويحمل الوفـد هذا القرار إلى الملك . وقرروا أن يكون جبل عامل مستقلاً استقلالاً داخلياً ضمن الوحدة السورية . ونظّموا بذلك محضراً وقعه المؤتمرن وسلموه إلى الوفد . ثـم وقّعوا ردّاً على الاحتجاج الذي انتُزع من بعض جهات جبل عامل بقوة السلطة ، اعتراضاً على ملكية فيصل وعلى المؤتمر السوري . وسُلم للوفد أيضاً . (٢)**

---

١ ـ الشيخ أحمد رضا مشهود له بموافقة الوطنية ومكانته الأدبية . وقد نافس الأمير شكيب أرسلان على إمارة البيان . والشيخ سليمان ظاهر من أعلام الوطنية والأدب والشعر. كان معتمد الحكومة العربية في بيروت أثناء تلك الفترة.

وقد تولّت صياغة مقررات مؤتمر الحجير لجنة قوامها السادة : الشيخ أحمد رضا ، الشيخ سليمان ظاهر , محمد جابر , الحج إسماعيل يحيى الخليل , الشيخ عز الدين علي عز الدين.

٢ـ أحمد رضا, مذكرات للتاريخ, العرفان, م٣٣, ج٩ / ٩٨٩.

ويورد محمد جابر ملخصاً عن هذا الشق في مقررات مؤتمر الحجير يقول :

إن المؤتمرين قرروا بالإجماع : انضمامهم للوحدة السورية ، المناداة بجلالة الملك فيصل ملكاً على سورية ، رفض الدخول تحت حماية أو انتداب. (١)

الملاحظ هنا أن مقررات مؤتمر الحجير عملت على أن تُعيد لجبل عامل هويته السياسية الواضحة . بعد أن كانت السلطات الفرنسية قد استطاعت أن توجد ثغرات في التطلع السياسي لهذه المنطقة .

ومع أن المتتبعين لوقائع مؤتمر الحجير يختلفون في مدى جدية والتزام بعض الأطراف التي وقعت مقررات المؤتمر, وبالتالي مدى جدية وفاعلية هذه المقررات ، فإنها تبقى التعبير الصادق والأكيد عن تطلعات العاملين السياسية .

ج ـ المقررات المتعلقة بالوضع الداخلي:

يتحدث الشيخ أحمد رضا عن هذه الناحية بتفصيل نسبي فيقول:

" **ثم تذاكر المؤتمرون بأمر الأمن في البلاد فتقرر بالإجماع العناية التامة بحفظ الأمن في سائر أنحاء الجبل لجميع أبنائه من مسلمين ومسيحيين .**

١- محمد جابر: تاريخ جبل عامل , ص٢٢٦.

واستُدعى الشيخ صادق الحمزة ، فدخل السرادق حيث انعقدت جلسة المؤتمر ، يحف به رجاله شاهري بنادقهم حوله. فجلس أمام العلماء والقرآن بين أيديهم . فأخذوا عليه وعلى رجاله الإيمان المغلّظة(١) ، أن لا يتعرض لأحد من المواطنين أبناء جبل عامل مسلمين كانوا أم مسيحيين بسوء وأذية . فأقسم على ذلك . واستثنى مَن كان إلباً منهم للفرنسيين على الوطن واستقلاله . مجاهراً بذلك للغاصبين المحتلين ، مسلماً كان أم مسيحياً أو من أي مذهب كان . لأن جهادنا سياسي لا ديني ". (٢)

ويؤيد محمد جابرمقولة الشيخ رضاعن موقف المؤتمرين من السلب والنهب:"**وانفض الاجتماع بعد أن نادى الرئيس وكبار العلماء بلزوم الطاعة والابتعاد عن الشرور والمحافظة على أموال وأملاك المواطنين المسيحيين وأرواحهم ودفع الأذى عنهم وإنذار المعتدين والمخالفين بشر الجزاء**". **(٣)**

١ـ يقول السيد شرف الدين في مجلة الألواح :١٥/ ٣ : " **وأحضرتُ بعدئذ رؤوس الثوار كصادق الحمزة وأدهم خنجر ومحمود الأحمد ونصحتهم وأمرتهم أن يكفوا عما هم فيه . بل هددتهم إن لم يكفوا بالعقوبة والمطاردة**".

٢ـ أحمد رضا, صفحات من حياتي, العرفان, م٣٣, ج٩, ص٩٩٠.

٣ـ ـ محمد جابر , تاريخ جبل عامل/٢٢٦.

هناك من يقول ، إن تطرّق المؤتمر للبحث في أحوال الأمن لم يكن بدافع إقراره فعلاً . لأن قطاعاً كبيراً من المؤتمرين كان يمزج في ذهنه بين حوادث السلب والنهب وأعمال العصابات الوطنية . من هنا وجّه المؤتمرون نداءً إلى الثوار بإلقاء السلاح ، ولزوم الطاعة ، والابتعاد عن الشرور ، والمحافظة على أموال وأملاك المواطنين . غير أنهم رفضوا الاستجابة لهذه الدعوات التي ترمي إلى تحقيق أمرين رئيسيين:

١ـ وقف المقاومة. (١)

١– استعادة الإقطاع لمراكز نفوذه التي هددها الثوار. (٢)

ج ـ الجو العام داخل المؤتمر:

إن أهمية مقررات مؤتمر وادي الحجير، وحساسية الظروف النى انعقد فيها ، والعلاقة التي كانت تحكم الأطراف الفاعلة في المؤتمر، نقاط تدفع بالباحث لإلقاء الضوء على الجو العام الذي سيطر على مناقشات المؤتمر ، والمنطق الذي حكم مواقف بعض الأطراف . والبحث فيما إذا كانت مقررات المؤتمر اتُخذت بإجماع الحاضرين أم بالأغلبية . وفيما إذا

١ـ أفاد شبيب قطيش أن كامل الأسعد طلب من صادق الحمزة وأدهم خنجر إلقاء السلاح ووقف المقاومة ضد الفرنسيين ، لكن هذين رفضا الطلب.

٢ـ مخطوطة حسن سليمان .

صادف المؤتمرون صعوبات وتصلّباً أثناء مداولة الآراء. لأن الحديث في هذه النقاط يلقي ضوءاً على طبيعة المؤتمر من أساسه ، وعلى مدى التمسك في المقررات المعلنة والعمل على تحقيقها وتبنّيها . خاصة وإن التنافر والخلاف بين الأطراف الناشطة على الساحة السياسية في جبل عامل كان قد بلغ قبل مؤتمر الحجير مرحلة الاقتتال والاتهام بالخيانة .

من هنا فاتخاذ المقررات المؤيدة للحكومة العربية في سورية بالإجماع في مؤتمر الحجير له دلالة على أن الأطراف المتقلّبة قبلاً ، والتي كانت ترغب في انضمام جبل عامل إلى لبنان قد غيرت نهجها ونظرتها للحركة الوطنية . وقد يكون ذلك عن قناعة أو تحت تاثير الجو العام الذي سيطر على المؤتمرين.

يقول محمد جابر، إن المؤتمرين قرروا بالإجماع... ، أما الشيخ أحمد رضا فيقول ، فيما يتعلق بالمستقبل السياسي لجبل عامل : "وبعد المداولة قرر القوم صوابية هذا الرأي" . ذلك ما يفتح أمامنا طريقاً للشك في أن القرار قد كان موضع إجماع . لأن تعبير" **قرر القوم** " لا ينفي أن يكون تكتلاً ، وإن صغيراً ، داخل المؤتمر قد عارض هذا القرار. خاصة وإن الشيخ أحمد رضا نفسه ، عندما يتحدث عن مقررات المؤتمر بالنسبة للوضع الداخلي في جبل عامل يقول:" **فتقرر بالإجماع العناية التامة بحفظ الأمن** ". الأمر الذي لم يقُله على قضية المستقبل السياسي .

وثمة من يقول ، إن المؤتمر قرر إن تُنظّم العصابات لحرب فرنسا والمؤيدين لها . وأن هذا القرار عارضة الشيخ يوسف الفقيه والسيد عبد الحسين محمود . وحجتهما في ذلك أنه ليس لدى العامليين القدرة على مواجهة فرنسا. (١)

وبرزت داخل المؤتمر كذلك الخلافات بين العصابات ، متمثلة بصادق الحمزة وأدهم الخنجر من جهة ، وبين الإقطاع السياسي وعلى رأسه كامل بك الأسعد من جهةٍ أُخرى . إذ أن كامل بك قال للسيد عبد الحسين شرف الدين(٢) عندما أخذ السيد ينخو صادق الحمزة : " **تخينة ! من سرقة الدحروب للحروب ، يا مولانا ؟!** " (٣)

ويؤكد الشيخ جودت الظاهر(٤) الخلاف بين كامل بك وصادق

١-الشيخ علي الفقيه, مقابلة جرت في نيسان ١٩٧٣.

٢-يهزأ كامل بك بتعبيره هذا من المنشأ الفقير المتواضع لصادق الحمزة.

٣ـ الشيخ عبد الله عز الدين . مقابلة جرت في نيسان ١٩٧٣ . وهذه الحادثة أكدها فياض حسن طالب من رجال العصابات الذين حضروا المؤتمر . ويذهب الشيخ علي الزين إلى أكثر من ذلك . فيقول إن كامل بك قال للسيد شرف الدين:من هو هذا الكلب . طبعاً بغفلةٍ عن صادق .

(٤) – مقابلة جرت في آذار ١٩٧٣ .

الحمزة . لكنه لايعود به إلى هذه أو تلك من الروايات السابقة . إنما يُرجعه إلى غضب كامل بك من صادق ، لأن هذا دخل مُحاطاً باثنين من رجاله ، المُثقلين بالقنابل والأسلحة (١)

والواقع ان الحديث عن الخلافات بين المؤتمرين داخل المؤتمر لـه من الشواهد ما يثبته . وهذا الخلاف هو استمرار لما تكلمنا عنه اثناء البحث في ظروف انعقاد المؤتمر وأسبابه . وقد تكون حالة الاندفاع في تأييد العصابات من قبل الجماهير المتواجدة هي التي حتّمت ظهور الخلاف . وحالة الاندفاع هذه برزت في الهتافات التي كانت ترددها الجماهير اثناء استقبالها لصادق وادهم . فقد استقبلت صادقا بالهتاف التالي ,

---

(٢)- حدثتني روشنا فاعور من معروب (أيار ١٩٧٣) ، ان صادقا انتحى جانبا في وادي الحجير ، ورفض ان يأتي الى كامل بك . فما كان من كامل بك الا ان أتي الى المكان الذي فيه صادق . وعندما لمحه هـذا الأخير قادماً قـال لرجالـه ، ان ابـا زطام (يقصد كامل بك) قادم، فإن امسكني فاقتلوه . وبعد وصول كامل بك قال لصادق مستنكرا ، ابن سعدى(يعني كامل بك) بيطلع لعند ابن خديجة (يعني صادق) . فما كان من صادق الا ان تقدم وسلّم عليه . وبعد تدخُّل العلماء بينهما أهدى كامل بك صادقاً ، وقد أُعجب بشجاعته ،سيفه وثمنه ٢٠٠ ليرة عثملية.لان هذا السيف"لا يليق بابن سعدى بل بابن خديجة".وحدثني الشيخ فهد الصعبي(حزيران ١٩٧٣)عن ادهم في مؤتمر الحجير , فقال ان ادهما ورجاله (ويزيد عددهم عن المائتين) اعلـنوا وصولهـم بزخات كثيفة ـــ

يهنيك يابيك الخليل(١)   صادق أبو حمزة لنا

واستقبلت أدهم بيك بـ :

ورّد على بير الضحى   حمر الشلافي غرّبت

فمن استقبال الجماهير المحتشدة في الوادي، نستشفّ أن مكانة صادق الحمزة في نظر الناس تعدت مكانة كامل بك ، الذي كان يعتبر نفسه المُطلَق اليد في جبل علمل . وذلك ما جعل الموقف بينه وبين رجال العصابات أكثر تأزّماً .

وسواءٌ صحّت هذه الروايات كلّها أو إحداها ، فإنها تتكاتف حول نقطةٍ واحدة . هي أن المؤتمرين حملوا معهم إلى المؤتمر مواقفهم الآتفة وحساسياتهم السابقة تجاه بعضهم . وما إجماعهم على بعض القرارات ، إن صحً أنّ هناك إجماع ، ليس إلا مُسايرة للشعور والاندفاع الوطنيين ، اللذين

ــ من الرصاص , وجلسوا في الجهة الشرقية قبالة الجهة التي كان يجلس فيها كامل بك ورجالات جبل عامل , وبعد ذلك سُمع منادٍ يقول : يا سامعين الصوت صلوا عالنبي , اولكم محمد , وثانيكم علي . عن أمر ادهم بك ممنوع مقابلته لاي كان ما عدا كامل بك الاسعد ومحمود بك الفضل . فخرج كامل بك من صوانه وقد تملكه الغضب قاصدا ادهم وقبل أن يصل تقدم منه ادهم اعزلا من السلاح وسلم عليه مبررا عمله بضرورة المحافظة على حياته .

(١) المقصود هنا كامل بك الأسعد .

سيطرا على الجو العام في وادي الحجير .

وفد المؤتمر إلى دمشق

تكلّم السيد عبد الحسين شرف الدين أمام الأمير فيصل باسم وفد مؤتمر الحجير . وألقى خطبةً سنعرض الآن القسم الأكبر منها ، لأنها تُمثّل بديلاً عن مقررات مؤتمر الحجبر المفقودة .

قال بعد البسملة :

" أجل ، إليك يا ابن رسول الله أرفعُ تحية شيعتك ، المتمسّكين بالعروة الوثقى من ولايتك ، العاقدين نية القُربى على مبايعتك . فامدُد يدك نبايعك على الجهاد في سبيل الله ورسوله والمؤمنين . بيعةً قائمةً مستمرّة ، حتى بلوغ الهدف . وذمتي بما أقول رهينة . وانا به زعيم . والهدف يقوم على دعامتين اثنتين : تطهير أرضنا من الاحتلال ، جمع شتاتها في ظلّ وحدةٍ وحريةٍ واستقلال .

ولن تقوم لسورية دولة . ولن تكون أرضها واحدة ، ما دام الفرنجة يكبلون جناحي الشام بساحله وفلسطينه.

وقد أجمع الرأي العام عندنا على المناداة بذلك , والجهاد في سبيل تحقيقه . وواجه به لجنة الاستفتاء الأميركية منذ عام . ولا عبرة بمن شذّ عن ذلك ، من كل مستأجر شرك الشيطان في جنانه ، وناطق على لسانه . وقد كانت مقررات مؤتمر وادي الحجير الحد الفاصل بين الحق والباطل . إذ

طبق جهير صوته الأرجاء ، وانعكس صداه في جميع الأنحاء . يردد نداء سواده الأعظم ، وعلمائه وزعمائه بالجهاد والاستشهاد في سبيل ذلك . والوثيقة التي رفعناها لجلالتكم أمس الأول تفصيل ما نُجمل . وأننا إذ نبايعك يا ابن رسول الله بهذا الأمر , فلأنك الخلف من أهل البيت في جيل هذه الأمة . وقد صح عن جدك صلوات الله عليه قوله :

" في كل جيل من أمتي خلف من أهل بيتي ينفون عن هذا الدين تحريف الظالمين وانتحال المبطلين" .

وجيل الأمة اليوم يقف على المفترق . يتربص لانتهاز الفرصة بعد أن صبر على الكظّة . يُساط بالحرمان ، ويتمرغ بالهوان . عرضة للنابلين، ولقمة للآكلين وفريسة للطامعين . شمله شتيت ، وعضده فتيت . وقد أذّنت به يا صاحب الجلالة . فاستيقظَ على النفير، وتوثّب للجهاد في سبيل التتغيير. وجبل عامل منه يهتف معه:

إن لم أقف حيث جيش الموت يزدحم
فلا مشت بي في طريق العلى قدمُ
لا بُدَّ أن أتـداوى بالقــنـــا فلقـــد صبـرت حتى فؤادي كلــه ألـــمُ
عندي من العز سرٌّ لا أبـوح بـــه حتى تبـوح بـــه الهندية الخـُذمُ
لا صبر أو تضع الهيجاءماحملت بطلقة معهـا مـاء المخـاض دمُ

على ذلك نتوجه إليك ، على بعـث الأمّـة على الجهاد في سـبيل

حريتها واستقالتها . ولله نداء أطلقته وشعار أرفقته : الاستقلال يؤخذ ولا يُعطى . فأحمل له حمل أبيك قائداً ملهماً وفارساً معلماً. حتى إذا جاء نصر الله والفتح ، بانتزاع أشتات سورية من المنتدبين الغاصبين ، جمعتها في كيان واحد يزين مفرقها تاجك ، ويحمي حدودها رتاجك ، ويسود نظامها دستورك ومنهاجك وينادي مناديها : إن الحق عاد إلى نصابه ، والإمام إلى محرابه . ورجع المضيع إلى أهله ، وانتقل إلى منتقله.

بأبي أنت وأمي ، أهل بيت النبوة ، ومعدن الرسالة ، ومهبط الوحي. بكم يُهتدى في الظلماء ، ونتنسّم ذرية العلياء . وسلام الله على أولكم وعلى آخركم ورحمة الله وبركاته. (١)

والسؤال الآن: ماذا حدث للوفد في دمشق ؟ وما طبيعة محادثاته مع الأمير فيصل ، وموقف الأمير فيصل من الثورة في جبل عامل ؟

إن المصادر التي تحدثت عن مهمة الوفد العاملي في دمشق محصورة مصدرين اثنين : مقالة للعلامة السيد محسن الأمين في مجلة العروبة، وأُخرى للسيد عبد الحسين شرف الدين في مجلة الألواح . والملاحظ في ماينقله العلامتان عن مقابلة الأمير فيصل وخفاياها مغاير للآخر. لذلك من الواجب نقل ما كتب حرفياً ، خشية أن يؤول الاجتزاء تحريفاً في روح النص.

١ـ وثيقة لدى السيد جعفر شرف الدين ستصدر في كتاب "رسائل ومسائل" .

يقول العلامة الأمين:

" ... والمشهد الثاني يوم وفد عليه ، أي على الملك فيصل ، ثلةٌ من أعيان جبل عامل ، يحملون تفويضاً من البلاد في التفاهم مع جلالته على الثورة أو عدمها في وجه الاستعمار الفرنسي . وكنتً مُفوضاً معهم في هذا التشاور . ولكني أبيت أن أرافق الوفد ، حتى استوثق منه أنه يقتصر على استشارة المليك . ثم يُعمل بما يشير به.

ولمّا دخلنا على جلالته وأحدقنا به ، إذا بالقوم يتبارون في الخطابة بين يديه شعراً ونثراً . حتى كاد المجلس أن يذعن للملك . وانتهى القول وليس فيه ما يشير إلى الثورة إيجاباً أو سلباً . فلم أشأ أن نكون في تمثيلنا جبل عامل . فالتفتُّ إلى المليك وقلت : إنهم يحملون إلى جلالتك تفويضاً من الجبل ، ويستنبؤنك صحة ما اعتزموا عليه من الثورة في وجه الفرنسي المستعمر، فبماذا تشير عليهم ؟ .

قال ما فحواه : هل أعددتم للثورة من السلاح والخيل؟ والسلاح كما تعلمون عتاد ورجال . والعتاد يشتمل على المدافع والبنادق . ثم الرجال والخيل تحتاج إلى طعام والعلف المنظم . فهل أقررتم هذا قبل أن تعلنوا ثورتكم؟

فأجبناه بأن ليس لدينا إلا العصا والمنساس . فضحك ، ثم توجّه إلينا بكليته وقال : إن أهل جبل عامل قوم ضعفاء ، لا قِبل لهم بالثورة .

فليلتزموا السكون" .

ذلك هو المشهد الثاني ، الذي برهن فيه المليك عن إحسانه الثاني . إذ أشار علينا بالتزام السكون ، فلم نمتثل لرأيه ، وثـار الجبل . فكانت العاقبة كما علمت ، نكبة تقهقرت معها البلاد عشرين سنة إلى الوراء .

فهل حفظ لنا تاريخ الاستقلال في عهد لبنان الجديد هذه التضحية ؟

لقد كان فيصل على حق ، إذ نصحنا وقال أنتم ضعفاء فالتزموا السكون ، ولم نكن على حق إذ خالفناه فثُـرنا " . (١)

اللافت للنظر فيما يسوقه العلامة السيد محسن الأمين ، إشارته إلى أنّ مهمة الوفـد في دمشق . إنّما كانت في التفاهم مع الملك فيصل على الثورة في وجه الاستعمار الفرنسي أو على عدمها . وهـذا مالم تتحدث عنه المصادر أصـلاً . بل إنّها حصرت مهمة الوفد في إبلاغ الملك فيصل مقررات مؤتمر الحجير بتأييد خطوات المؤتمر السوري .

هكذا نرى أنّ العلامة السيد محسن إنّمـا يُشدّد على أن موقف فيصل كان النصح بالهدوء والسكينة ، وعدم مقاومة الفرنسيين .

١ـ السيد محسن الأمين : مجلة العروبة ، العدد ٥ / ٨٦ .

أما ما ينقله السيد عبد الحسين شرف الدين عن مهمة الوفد في دمشق فهو التالي:

" **اجتمعنا في دمشق بجلالة الملك فيصل . وقد استقبل وفادتنا إليه وفي نفسه ووجهه بشاشة تهز نفسه ووجهه بالمؤنسات . وتمهد لنا من دنيا الكرامة . وأقبلنا عليه ملكاً يتناسى ملكه ويصغي إلى مطالبنا إصغاء من به حاجة إلى الإصغاء . وإستهلينا الحديث معه بالتهنئة التي حملناها من وادي الحجير بملكه الجديد . وكانت لنا معه بعدئذ جلسات متعددة انفردتُ به في بعضها . وكان معي العلّامتان السيد محسن والسيد عبد الحسين في بعضها . وكان موضوع هذه الجلسات النظر في مصير جبل عامل خاصة . وكنا نبحث في وجهات ذلك كله باستقصاء وتفصيل المراجعات والمحاذير. وكان لي في بعض الجلسات مواقف خطابية. (١) كان لها وقع حسن في نفسه ، وتأثير في نضج بعض الفكر المتصلة بمهمتنا جميعاً . وأخيراً بذل لنا ما نحتاج إليه من عتاد وجند وأطباء. ولكنّ الظروف كانت تقضي بالأناة والتريث . فاتفقنا على أن يكون ذلك جاهزاً إذا**

١- أخبرني الشيخ جودت الظاهر ان الملك فيصل بعد أن سمع خطاب السيد عبد الحسين قال : " **لقد كان لكلامه عندي وقع السلافة**" , جرت المقابلة في نيسان ٧٣.

اشتد الأمر وأمكنت الفرص. (١)

وفي عددٍ آخر من مجلّة الألواح يقول السيد عبد الحسين :

" وكان فيصل وفيّاً بوعده . وجهّز إلى الجبل قوافل من العتاد والأطباء . ولكن الزعيم كاملاً أرجع ذلك كله تعويلاً على الحلول السليمة وأخذا بالأناة والتساهل. (٢)

واضح هنا أن موقف فيصل ، حسبما أورده السيد عبد الحسين ، مخالف تماماً لما ساقه السيد محسن الأمين . فقد أرسل فيصل السلاح والذخائر والجند والأطباء إلى جبل عامل .

وهناك من الوقائع ما يؤيد ما نقله الطرفان . فالذي مرّ سابقاً نقلاً عن لسان طعّان الخليل من أن فيصلاً نصح كامل بك بعدم مقاومة الفرنسيين يدعم مقالة السيد محسن الأمين .

أما ما نقله السيد عبد الحسين ، فتدعمه أسباب انعقاد مؤتمر الحجير نفسها . ومن أهمها تهديد رجالات الحكومة العربية في دمشق باحتلال جبل عامل ، وترحيل الفرنسيين وإقامة حكومة عربية , ومادام عزم الحكومة العربية هكذا ، حتى قبل انتزاع موقف واضح وصريح من جبل عامل بالانضمام إلى سورية ، فمن الطبيعي أن لا يتغير هذا الموقف بعد

١ـالسيد عبد الحسين شرف الدين, صفحات من حياتي, الألواح: ١٥ / ٤ .

٢ـالمرجع السابق: ٩/١٦.

مقررات مؤتمر وادي الحجير.

يبقى هناك تساؤلٌ أخير:

لماذا هذا الاختلاف في نقل وقائع ماجرى في دمشق مع الملك فيصل ؟

قد يكون التبرير الوحيد لذلك ما ساقه السيد عبد الحسين شرف : "**كانت لنا بعدئذ جلسات انفردتُ به في بعضها**" . فمن المحتمل أن يكون الملك فيصل قد استسرّ السيد عبد الحسين بإرسال الجند والعتاد إلى جبل عامل في اجتماع انفرداي . لأن هذا العمل يمكن اعتباره سراً عسكرياً لا يجوز البوح به أمام مجموعة خاصة . وأنّ السيد محسن الأمين ، برغم كونه عضواً في الوفد المفوّض من المؤتمر، كان مقيماً بنحوٍ شبه دائم في دمشق.

موقف المسيحيين من المؤتمر:

اكتسب المؤتمرهوية إسلامية شيعية ليس عاملية. ففي الأصل أرسل كامل بك بطاقات الدعوة للعلماء والأعيان والمفكرين لعقد مؤتمر عاملي من أبناء الطائفة الشيعية على رأس نهر الحجير(١) . وقد تكون هذه هي الحلقة الأضعف في حلقات المؤتمر. لأن أسباب المؤتمر وأهدافه لا تمنع دعوة الفئات المسيحية في المنطقة . خاصةً وأنّ بينها مَن كان يؤيّدُ حركة فيصل

١ـ محمد جابر, تاريخ جبل عامل, ص٢٢٦.

والحكومة العربيّة.من هنا فاستبعاد الفئات المسيحيّة(١) عن المؤتمر أوجسها خيفةً في بداية الأمر .

تقول جريدة البشير بعد أن تتحدث عن سفر الوفد إلى الشام لمباحثة فيصل في الحوادث التي تقع في جبل عامل:" **هذا ظاهر الاجتماع . أما بواطنه فخفيّة . ولا يصدق القول حتى يصدق العمل. وإن ما يجعلنا بريبة من نيات هؤلاء تهافتهم مؤخراً على مشترى الأسلحة. (٢)**

وفي رسالة لمراسلها في عين إبل ، تقول الجريدة نفسهاعن مؤتمر وادي الحجير:

" **في برهة ١٥ يوماً عقد المتاولة اجتماعاً حضره رؤساء دينهم وزعيمهم كامل بك الأسعد . فتشاءمنا من هذا الاجتماع وحسبنا له ألف حساب . وسألنا ما المقصود منه ؟ فكان الجواب: إن غايته راحة البلاد واستتباب الأمن . وأكد ذلك الحاج محمد سعيد بك وإخوانه وقالوا إنه إذا حدث شيء افتديناكم بالأرواح " . (٣)**

١ـ أخبرني السيد جعفر شرف الدين أن الياس سالم (أخ نقولا سالم الوزير والنائب السابق) كان ينوي حضور المؤتمر لكن آل الخليل في صور منعوه .

٢ــ جريدة البشير:٢٥٥٦, ٦ايار ١٩٢٠/٣.

٣ـ البشير, ٢٥٧١, ٢٠ أيار ١٩٢٠ / ٢.

لكن هذا الموقف الحذر المهادن سرعان ماسينقلب عدائياً خصيماً تحت تأثير الأحداث الطائفية التي تلت المؤتمر، بالهجوم الشيعي الكبير على (عين إبل) . ذلك ماحدا بالأوساط المسيحية المتطرّفة لسوق أخبار تتنافى لا مع ماساقه غيرها من المصادر، بل مع سياق الأحداث وطبيعة العلاقات الإسلامية والمسيحية في المنطقة.

تقول جريدة البشير:

" وإنما الحقيقة هي أن العصابات المتعددة اتفقت على أثر هذا المؤتمر على تقسيم القضاء فيما بينهم.فاصبح الأشقياء كلهم تحت زعامة اثنين هما صادق الحمزة من دبعال من أقرباء كامل بك الأسعد ومحمود أحمد بزي ابن أخي الحاج محمد سعيد أفندي بزي من بنت جبيل. تحالف الزعيمان على تدمير القرى المسيحية." (١) فتعهد محمود الأحمد بزي تخـريب عين إبل وجوارها من قـرى المسيحيين . وصادق بالزحـف عـلى

١- تقول الراهبة كلمنتين خياط في مجلة المشرق, م١٨, ص٧٢٢:

" بقينا في هذه الحال شهراً كاملاً . وكل يوم تأتينا الأنباء بفظائع أهل الشيعة في كل جهات القضاء ، ولا سيما بعد اجتماع شيوخهم وزعمائهم في الحجير في ٢٤ نيسان الجاري ، أنهم صمّموا النية على مهاجمة القرى التي لم يجسر المتاولة بعد أن يلحقوا بها ضرراً ، وخصوصاً عين إبل ودبل ورميش وعلما ، لبسالة أهلها" .

صور.. . وقد أهاج القوم السيد عبد الحسين شرف الدين من قرية شحور. وهذا زعيم الشيعيين الديني في صور ، بتكراره على شقيف مؤتمر الحجير تلك الفتوى الشرعية التي كان قد أصدرها قبل حوادث دردغيا ، بإفناء المسيحيين عن بكرة أبيهم في قضاء صور. إذ حلّل للشيعيين دم المسيحيين وأموالهم وأعراضهم .

ولم يكن إرسال وفد الحجير إلى الشام برئاسة السيد المذكور إلا حيلة لم تنطل على كل ذي عقل سليم . فإنه لم يمض يوم واحد من ذلك الاجتماع بدون سلب ونهب وقتل وإفناء للعنصر المسيحيي من القضاء، لكي يتخلص الشيعيون من الأقلية المسيحية ، ويبقون وحدهم سادة البلاد. (١)

ويجاري أمين الريحاني عندما يتحدث عن مؤتمر الحجير المذاهب السابقة لجريدة البشير ومجلة المشرق , لكن من زاوية ثانية فيقول:" **وقد عقد اجتماع في وادي الحجير، فضرب أحد المشايخ خيرة** (استخار الله بالسبحة) **على ذبح النصارى**" (٢)

الواقع أن هذه الاتهامات السابقة وجدت سنداً لها في السياق الذي

١ـ جريدة البشير, ٢٥٧١, ٢٠ ايار, ١٩٢٠, ص٢.

٢- أمين الريحاني, ملوك العرب, ج٣, ص٣١٥-٣١٦.

اتخذته الأحداث فيما بعد . إذ ألقت ظلالاً من الشك في مدى صدق والتزام بعض رجالات الحجير، بحفظ الأمن ، والمحافظة على أموال وأرواح المسيحيين .

والبحث في هذه الاتهامات . خاصّةً فتوى إفناء التصارى ، يفرض علينا إلقاء الضوء على ناحيتين :

ــ الأولى طبيعة العلاقات القائمة بين المسلمين والمسيحيين في جبل عامل ، وهل هي تسمح لمثل هذه الفتوى ، على افتراض حصولها ، أن تأخذ مكانها في نفوس المسلمين وتنعكس بالتالي عصبية طائفية قاتلة ؟

ــ الثانية تتعلق بالسيد عيد الحسين شرف الدين ونهجه في مؤتمر الحجير وخارجه كعالم ديني في منطقة جبل عامل.

فيما يتعلق بالناحية الأولى ، نرى أن الأقلية المسيحية المتواجدة في منطقة جبل عامل ، وهي أصغر أقلية مسيحية في العالم الإسلامي ، حسب رأي الأستاذ حسن الأمين ، ولم تلقَ منذ تواجدها الأول أي نوع من القهر أو الاضطهاد ، حتى تحت حكم الدولة العثمانية التي طالما غذّت العصبيات الطائفية . وقد يقول قائل إن الطرفين كانا مضطهدين من قبل هذه الدولة ، مما دفع بهما إلى التكاتف والتآزر. هذا صحيح ، ولكن الصحيح أيضاً أنه لو وجدت ثغرة بسيطة لاستغلتها الدولة العثمانية .

والتاريخ يُحدّثنا عن التسامح الديني بين سكان جبل عامل .

يقول محمد جابر عن موقف الشيعة في احداث ١٨٦٠ من جيرانهم المسيحيين :

"**ووقف** (علي الأسعد) **مع سائر عشائر جبل عامل موقفاً شريفاً في الحرب الأهلية التي شبّت بين الدروز والنصارى سنة ١٨٦٠ . فالتجأ كثيرون من منكوبي المسيحيين اللبنانيين إلى جبل عامل ، حيث حلّوا فيه ضيوفاً على الرحب والسعة . فحماهم الشيعيون وآووهم . ودافعوا عنهم دفاعاً مجيداً ، لم يزل يذكره فضلاؤهم إلى اليوم . وحاول محمد بك الأسعد أن ينتصر للمسيحيين ويكبح جماح الدروز لمّا هاجموا جبع آخر بلاد الشيعة الشمالية ، ونهبوا الأمانات والأموال التي كان قد أودعها المسيحيون النازحون في دار العلامة الشيخ عبد الله نعمة ، فاهتز الجبل بأسره . وأسرع محمد بك على رأس ألف فارس إلى جبع لمهاجمة الدروز . غير أن سياسة الدولة التركية يومئذ قضت بإيقاف الهجوم ، وحال دونه خورشيد باشا والي إيالة صيدا . فسوّى القضية وأعاد المنهوب. (١)**

هذه العلاقات حافظت على سياقها أثناء الحرب العالمية الأولى . ولم يستطع جمال باشا إحداث فتنة طائفية في جبل عامل بين المسلمين

١ــ محمد جابر: تاريخ جبل عامل/ ١٥٩– ١٦٠.

والمسيحيين ، عندما جمع مسلمي المنطقة وأبلغهم بواسطة محمد جمال باشا ، قائد القوة العسكرية في لبنان ، أن يكونوا على استعداد لمهاجمة الشوف ودير القمر وما يتبعها . واختصّ عبدَ اللطيف بك الأسعد بقيادة الحملة على قرى المسيحيين في جبل عامل والشوف . فأدرك عبد اللطيف، ولم تبرح من باله حوادث القرن الماضي،الغاية من هذه الحركة التي يراد بها هلاك الفئتين، ثم إلقاء التبعة على الأهلين أنفسهم والإجهاز على من يبقى منهم. قال:"**فتظاهرتُ بالطاعة وطلبت منه بكل بساطة أمراً يجيز لي الدفاع والهجوم**".فتبسم رضا باشا وعلم أن الحيلة لم تجرِ عليّ. فطوى الحديث(١).

وحتى إن نحن بحثنا في هذه العلاقات في الفترة التي تزعم جريدة البشير صدور الفتوى أثناءها ، لوجدنا أن نمط العلاقات بين الطرفين من حيث إطارها العام لم يكن قد تغيّر بعد . بل نجد موقفاً مشابهاً أثناء أحداث ١٨٦٠ ، عندما هاجم البدو جديدة مرجعيون . فلجأ أهلها المسيحيون إلى النبطية فاستُقبلوا أحسن استقبال . ثم هاجموا (الثوار) في ٨ كانون الثاني ١٩٢٠ عساكر المحتلين في جديدة مرجعيون ففرّ سكانها المسيحيون للنبطية فلاقاهم أهلها بالترحاب ، وأقاموا أشهراً على الرحب والسعة حتى هدأت الأحـوال . فعادوا شـاكرين . ونشـروا بلاغـاً في صحف بيروت يُعـرب عن

---

(١) نفسه / ٢٠٢ .

تقديرهم لعطف الأهلين مدة إقامتهم في النبطية..

وفي منطقة بنت جبيل ، وهي مسرح الأحداث الطائفية سنة ١٩٢٠ ، كثيراً ما التقى المسيحيون والمسلمون في رقصات دبكة جماعية في ساحة عين إبل ، وفي ساحات بنت جبيل سنة ١٩١٨ ، احتفاءً بزوال الحكم العثماني . وحتى في ذروة الصراع الدامي في ٥ أيار ١٩٢٠ ، فإن قرى مسيحية كثيرة في المنطقة لم يتعرض لها أحد بسوء ، كقرية رميش مثلاً أو قرى يارون وتبنين وبرعشيت ، حيث تتواجد أقليات مسيحية إلى جانب أكثرية مسلمة كبيرة (١) .

بعد هذا يمكن القول إن تماسك العلاقات بين الفئتين لم يكن ليشكّلُ مناخاً ملائماً لإصدار مثل تلك الفتوى ، بالنحو الذي زعمته جريدة البشير ومجلة المشرق ، أو الذي انزلق إليه في تصوره أمين الريحاني . لأن تعليق أمر له من الأهمية كاجتماع بنتيجة ليس ممّا تقره (الخيرة) . يعني ، في نهاية المطاف ، انتفاء أي نوعٍ من أنواع الصراعات الاجتماعيّة والتطلعات الوطنيّة والمواقف السياسية الواعية . هذا عدا كونه يطال نظرة رجال الدين لأمور الدنيا ودورهم في الحركات الإنسانية ، وينفي بالتالي دور الدين كفاعل ومحرك في الأحداث . فيصبح كل تصرف أو فعل مهما عظم أثره وبعُــدت

أيضاً / ٢٢٧ ــ٢٨ .

مراميه مرهوناً بنظر أمين الريحاني بحبّات المسبحة ، هل هي بالفرد أم بالزوج .

والحديث عن تماسك العلاقة بين المسيحيين والمسلمين , لا يقود طبعاً إلى التصور إنها راسخة صلبة . لو كان الأمر كذلك لما وقعت الأحداث الطائفية أصلاً . وإنما يجب التفتيش عن أسباب أكثر دقّةً لتحديد المسؤولية فيما حدث . تكون أكثر انطباقاً على واقع الحال المعيوش في المنطقة ، وعلى طبيعة التوازنات السياسية وتفاعلها، إنْ في جبل عامل بشكل عام ، أم في منطقة بنت جبيل مسرح الأحداث بشكل خاص.

هذا فيما يتعلق بالعلاقة بين المسلمين والمسيحيين .

أما فيما يخص الناحية الثانية ، ذات العلاقة بالسيد عبد الحسين شرف الدين وسيرته نهجه ، سواء خارج أم داخل مؤتمر الحجير، فإنّ القرائن تُنبي بأنه ساهم كثيراً في إطفاء ما قد أذكته الأحداث الطائفية في دردغيا . ومن ذلك ، أنّه ألجأ في بيته قسماً كبيراً من مسيحيي قرية دردغيا ، الهاربين أثناء الاعتداء على تلك المزرعة . وحفظ أهلُها الجميل للسيد ، حتى إن مختار القرية آنذاك ، واسمه خليل إبراهيم ، لقّب السيد بمطران النصارى. (١)

١-الشيخ ابراهيم سليمان , جرت المقابلة بتاريخ نيسان ١٩٧٣.

وحدّث كثيرون عن موقف السيد في فترة المجاعة التي واكبت الحرب العالمية الأولى ، وكيف أنه كان يوزع الطعام بعد أن يجمعه من الميسورين ، على فقراء المسلمين والمسيحيين بالتساوي ، دونما أي اعتبار أو تفريق مذهبي .

أما بالنسبة للفتوى داخل مؤتمر الحجير. فلم تتحدث عنها المصادر أبداً ، لاتلميحاً ولاتصريحاً ، عدا جريدة البشير . وذلك كاف في دحضها . لأنها لو حدثت بالفعل ، لما استطاع أي من الذين أرّخوا المؤتمر أن يتجاهلها . خاصة وإن الخلافات بين أعلام الطائفة الشيعية وعلمائها في ذلك الوقت ، جعلت بعضهم يتربص بالبعض الآخر، لاستغلال أية زلّة أو هفوة . والوقائع التي نُقلت عن اجتماع الحجير تومئ عكس ما تدعيه البشير والمشرق .

يقول الشيخ أحمد رضا عن موقف السيد في مؤتمر الحجير:

" **...لا سيما بعد مؤتمر الحجير ، الذي كان موقف السيد منه موقفاً شريفاً فقد رفع صوته بالجماهير المجتمعة يومئذ بحفظ الجوار واجتناب التعدي على كل أبناء الوطن من مسيحي ومسلم, وإن كان ثمة جهاد ضد المستعمر الغاصب الظالم" . (١)**

١ــ أحمد رضا: صفحات من حياتي , العرفان: ٤٤٢/٤.

وأثناء مناقشته لموقف السيد عبد الحسين شرف الدين من أحداث العشرين ، يتطرّق محمد علي الحوماني لمؤتمر الحجير ، فيقول مخاطباً السيد:

" **فهل أحسستَ من هـذه آنذاك مَن يردُّ لك كلمة أو يعصي لـك أمراً . كلهم كان مذعناً خاضعاً بين يديك . يتخذ قولك الحدّ الفاصل بين الحق والباطل . ولو شئتَ أن ترمي بهم يومئذ في البحر لَما عصواً لك أمراً . فهل كانوا مقصرين في السمع والطاعة والإذعان بين يديك ؟ وهل لك بعد هذا أن تعتذر بأن القوم لم يطيعوا ولم يسمعوا .**

هذا مشهد شهدته بنفسي ووعيته بقلبي وتدبرته بسمعي وبصري . أتذكر ذلك سيدي." (١) .

والـذي يعرف طبيعة العلاقـات بين السيد عبد الحسين شرف الدين وبين محمد علي الحوماني(٢) ، وحدّة التأزم الكائن بينهما آنذاك ، يستغرب كيف لا يتحدث الحوماني في مقالته عن الفتوى فيما لو كانت صحيحة ..

١ــ محمد علي الحوماني : مجلة العروبة ، العدد ٣٠ /٢٦ .

٢ـ أنشأ محمد علي الحوماني مجلة أسماها نصف الليل ، كانت هدفاً لنقمة علماء الدين . خاصة وأن فيها ركناً أسماه مذكرات خليع ، يتحدث فيه كاتبه ، وهو الحوماني نفسه ، عن غرامياته ومغامراته.

وبعد ، لقد شكّل جبل عامل في مؤتمر وادي الحجير كياناً سياسياً له تطلعه المحدد بالانضمام إلى الحكومة السورية . ولكن مدى جدية هذا التطلّع والعمل في سبيل تحقيقه قضية لا تحددها المقررات المكتوبة . خاصة وان الجو العام لعب دوراً كبيراً في فرض مواقف سياسية هي أكثر انطباقاً على الواقع منها على الحقيقة .

الفصل الرابع

نتائج المؤتمر والأوضاع في جبل عامل بعده

أولاً: النتائج المباشرة للمؤتمر:

١ ـ تمهيد:

تُجمع المصادر على أن مؤتمر وادي الحجير كان محرّك الأحداث الطائفية في المنطقة .

جريدة البشير ومجلة المشرق وأمين الريحاني في كتابه (ملوك العرب) رأوا فيه ذروة التصعيد العدائي تجاه مسيحيي جبل عامل . وانطلقت نظرتهم للمؤتمر من أنه كان تكتلاً واعياً مقصوداً ، شكّلت فكرة القضاء على العنصر المسيحي المحور الرئيسي لأعماله .

أما محمد جابر والشيخ أحمد رضا ، فمع الاستبعاد الكلي لأية مسحة طائفية عن المؤتمر، وجدا فيه محركاً طائفياً كلٌّ من وجهة نظر له. حيث بعض الموظفين الذين التفوا حول الحاكم الفرنسي في بيت العازوري وبيت نور، وغيرهم من شذاذ الآفاق، لم يرُق لهم الاجتماع . ورأوا فيه خسراناً لمراكزهم وسدّاً لباب منافعهم . فأشاعوا أنه عُقد للتنكيل بالمسيحيين. (١)

١- محمد جابر: تاريخ جبل عامل, ص٢٢٦.

الشيخ أحمد رضا يرى أن استبعاد أحد رجال العصابات من مؤتمر الحجير ، كان دافعاً لأن يتصرّف المبعَد عكس ما أوصى به المؤتمرون . ولا شك أن استدعاء صادق الحمزة إلى المؤتمر أحفظ غيرَه من الزعماء الثائرين العامليين مثل محمود أحمد بزي , وأحسب أنهم سيعملون عكس ذلك. (١)

والجدير بالذكر أن الحوادث الطائفية انفجرت قبل مجيء الوفد المنتدب من قِبَل المؤتمر من دمشق . هذا يرجح الاعتقاد أن هذه الحوادث افتُعلت في المنطقة لأجهاض مقررات المؤتمر، والحؤول دون نجاح مهمة الوفد في دمشق . لأن الوصول إلى حلٍّ حاسم مع رجالات سوريا بشأن المستقبل السياسي لجبل عامل معناه إضافة صعوبةٍ جديدةٍ أمام الفرنسيين . لأن الثورة فيه قادرةٌ بقدراتها الذاتية على أن تفرض في المنطقة طوقاً من الحصار، يمنع الموظفين من قبل فرنسا ، لا بل القوات الفرنسية نفسها من التواجد المأمون ، بل من التواجد أصلاً . لأن الأمور في تلك الفترة كانت قد تطورت تطوراً سريعاً. وباتت الحكومة الفرنسية في جبل عامل مغلولة اليد. لا يمتد سلطانها وراء المدن الساحلية . والبلاد مضت ثائرة لا تُقـرّ معاملة ولا ترجع إلى الدوائر الرسمية في أمر من أمورها .

١-أحمد رضا, مذكرات للتاريخ : العرفان, م٣٣, ج٩٩٢/٩.

٢ـ حادثة عين إبل:

عين إبل قرية مسيحية قرب بلدة بنت جبيل ، أكثرية سكانها من الموارنة ، وفيها أقلية من الروم الكاثوليك . كانت سنة ١٩٢٠ مسرحاً لمذبحة طائفية ، ما زال البعض حتى الآن يرجع أسبابها لتعصبٍ طائفي كامن في النفوس .

فما هي الأسباب الحقيقية لهذه الحادثة؟ وما هي نتائجها؟

أ- أسباب حادثة عين إبل :

اتخذت عين إبل سنة ١٩٢٠ موقفاً مؤيداً من سلطات الاحتلال الفرنسي ومُجانباً للحركة العربية. برز هذا الموقف في أوجه عدة ، منها الاحتفالات بقدوم الجنرال غورو (١) إلى لبنان، وفي الجمعيات المؤيدة لفرنسا (جمعية اتحاد الشبيبة). ومن أهدافها توحيد قلوب الشبيبة على العمل للخير, ونشر حسنات فرنسا وبيان نياتها النبيلة نحو البلاد (٢) . ولم يخفِ

١ـ كانت ترافق هذه الاحتفالات مباريات زجلية وأهازيج شعبية تمتدح فرنسا المسيحية وتشيد بانتصارها على تركيا المسلمة. ومن هذه الأغاني:

بيبا فرنسا بيبــا (فيفا) يحيــا دــين الصليبــا

أو مثلاً : فرنسا يا شعب يا مليح يا معزز دين المسيح

٢ـ جريدة البشير: ٢٥٢٩, ٢٥ك٢ ١٩٢٠ / ٤.

العين إبليون حبهم لفرنسا . بل جاهروا به خارج إطار بلدتهم .

أخبرني السيد أنطانس صقر: نزلنا إلى صور. وكنا نرفع لافتة بيضاء كبيرة ، كتبنا عليه باللغة الفرنسي : تعيش فرنسا، يعيش كليمنصو، يعيش غورو. ووقف الناس ينظرون إلينا بدهشة واستغراب لأن اللافتة تظهر لأول مرة, فظنوها علَماً. (١)

من الطبيعي أن تثير هذه الأعمال نقمة الأكثرية المسلمة ، لما بين الطرفين من تناقض في المواقف السياسية . فاندفاع أهل عين إبل وما جاورهم من المسيحيين في حبهم لفرنسا ، كان يقابله اندفاع من قبل الأطراف الأخرى تجاه الحركة العربية وحكومة دمشق ، ومساهمة فعلية في المقاومة المسلحة ضد فرنسا.

في هذا المحيط وجدت فرنسا متّسعاً لنصب حبائلها، بتسعير الشعور الطائفي عند كلا الطرفين . فأخذت تنشر إشاعات عن هجوم محتمل يقوم به المسلمون الشيعة على القرى المسيحية . وبالمقابل انتشرت إشاعات في القرى الإسلامية تقول إن أهالي عين إبل يتهجمون على الدين الإسلامي ويهزأون بشعائره ، مما أضفى على الموقف في المنطقة طابع الحذر والترقب ، ودفع بأهل عين إبل إلى طلب الحماية من فرنسا . فذهب وفدٌ منهم إلى

١- الياس صادر: ثورة جبل عامل ١٩٢٠/ ٤٦.

صور حيث قابل القائد الفرنسي دي لاباستيير . فاعتذر القائد عن تلبية الطلب ، محتجاً بأنه يخشى صادق الحمزة ، ولا يستطيع أن يرسل جندياً واحداً لحماية عين إبل ، وأنه هو نفسه ينام في البحر خوفاً من هجوم العصابات عليه . ولكنه قال للوفد : هذه مخازن السلاح . خذوا منها ما شئتم من البنادق والذخيرة ودافعوا عن قريتكم بأنفسكم.(١)

يظهر من ذلك ، أن فرنسا هي التي زرعت لدى المسيحيين بذور الخوف من المسلمين ، بإظهار نفسها عاجزة حتى عن حماية نفسها أمام سطوتهم . ذلك ما دفع أهل عين إبل إلى التسلّح تحسباً وترقباً . لا بل إنها هي التي شجعتهم على استفزاز المسلمين .

أخبرني السيد أنطانس صقر ، أنه مرّ على صور ليأخذ بندقية فأُعطيت له مع ذخيرتها. وقيل له :" **نريد رأس شيعي مقابل كل رصاصة !** " فسأل: " "**وكيف نحمل الرؤوس ؟!** " فأجابوا: " **احملوا الآذان فقط !** " . (٢)

الذي أضفى على ادعاءات فرنسا طابع الجدية أمران:

ــ تواتر أعمال السلب والنهب في تلك الفتر. لكن هذه الأعمال ، عـدا عن كونها ظاهـرة طبيعية في حالة الفوضى السياسية وغياب السلطة

١-نفسه / ٤٧.

٢-أيضاً .

المركـزية ، كانت تطال القرى المسلمة أكثر من القرى المسيحية . ولم يُنقل عن أية أعمال سلب أو نهب تعرضت لها القرى المسيحية في منطقة بنت جبيل قبل الأحداث ، أي طوال العامين ١٩١٨- ١٩٢٠.

ـ إن العصابة الرئيسية العاملة في منطقة بنت جبيل ، وهي عصابة محمود الأحمد بزّي ، لم تكن وطنية بأبعادها ومراميها . ولم تنقل عنه المصادر المكتوبة وغير المكتوبة أي تعرّض أو تصدٍّ لقوات الاحتلال الفرنسي . مما شجّع لا بل رسّخ الاعتقاد السائد لدى المسيحيين ، بأن لهذه العصابة دوراً محدداً هو التعرّض لسلامتهم وأمنهم وبالتالي لوجودهم .

ب-موقف العصابات الوطنية من أهل عين إبل:

إن الأخبار عن موقف العصابات الوطنية من أهل عين إبل ، واندفاعهم مع الفرنسيين ، تتكاتف كلها عند نقطة واحدة ، هي انتفاء المؤشر الطائفي في تحديد أبعاد الموقف .

حدّث أبو أديب مزرعاني عن أن صادق الحمزة أرسل رسالة إلى أهل عين إبل مع أحد رجاله المدعو قاسم محمد قاسم الحاج من قرية حولا ، بعد أن ترامى للثوار أن فرنسا أرسلت أسلحة إلى عين إبل . وكان فحوى الرسالة أن الثورة ضد الفرنسيين ، وأهل عين إبل أهلٌ واخوان . وترجوهم عدم التعاون مع فرنسا ومساعدة الثوار. فكان رد وجهاء عين إبل أنهم والثورة أهلٌ في منطقة واحدة . وهم على استعداد لجميع ما يُطلب منهم . ولكن

عملاء فرنسا في عين إبل ، بعد أن استلم قاسم الرد ، كمنوا له وأخذوا منه الرسالة ومزقوها أمامه, وقالوا له :

" **بلّغ صادق الحمزة أن موته لن يكون إلا برصاص شباب عين إبل**" . (١)

وفي كتاب(ثورة جبل عامل ١٩٢٠) حديثٌ عن هذه الرسالة يخالف مضمون ما نقله أبو أديب مزرعاني (٢) . فقد ورد فيه ، أن صادقاً أرسل إلى أهل عين إبل يطلب السلاح ومبلغاً من المال . فأعاد هؤلاء الرسول بعد أن أهانوه وحملوه التهديد قائلين له: " **إذا كانت لديك الشجاعة فتعال لأخذ ما تريد ، ونحن بانتظارك في شلعبون** " (٣) . وفعلاً جـاء صادق إلى المكـان المذكور ، وتبادل إطلاق النار مع أهـالي عين إبل . لكنّه رجع عندمـا رأى

١ـ تقول مجلة المشرق مجلد ١٨/ ٧٨١ أن الرسالة تطلب من أهل عين إبل أن يجمعوا كل الأسلحة وينصبوا العلم الشريفي. فكان جوابهم أنهم يهنئون الأمير بسمو مقامه ، لكن لايمكنهم دفع سلاحهم ولا رفع العلم إلا بأمر حاكمهم الفرنساوي في صور. وإذ طلب منهم حاملو الرسالة ٤٠٠ ليرة لملك سورية ، أجابوا ليس لديناما. فرجع الوفد على أعقابهم يتهددون بالحرب.

٢ـ جرت المقابلة معه في نيسان ١٩٧٣.

٣ ـ اسم مكان يتوسط الطريق بين بنت جبيل وعين ابل .

الأمر جدّياً . (١)

إن انتفاء المؤشر الطائفي عن طلبات صادق الحمزة من أهل عين إبل ، يجد تفسيرهِ من ناحية أولى في كونه رغبة في فرض سيطرة باسم الحكومة العربية على جبل عامل . هذه السيطرة كان يمزّق وحدتها ويحدّ من تماسكها تسلح أهل عين إبل من فرنسا ، وإتيانهم برجل أرمني من صفد , وهو ضابط سابق ، ليدربهم على فنون القتال . وألّفوا فرقة عسكرية تولّى قيادتها الشبّان الأكثر شجاعة وتناوبوا حراسة القرية ليلاً ونهاراً (٢) .

ومن ناحية ثانية ، إن طلبات صادق هذه لا تخرج عن الإطار الذي حدّده لنفسه في مؤتمر الحجير، عندما طُلب منه أن يقسم على أن لا يتعرّض لأحد من نصارى جبل عامل بسوء أو أذية فأقسم بذلك ، واستثنى من كان منهم إلبا للفرنسيين على الوطن واستقلاله ، مجاهراً بذلك للغاصبين المحتلين مسلماً كان أو مسيحياً ، أو من أي مذهب كان . لأن الجهاد سياسي ليس دينياً . وموقف صادق هذا لم يكن موجهاً ضد المسيحيين وحسب ، فالوقائع تخبرنا أن صادقاً كثيراً ما هدّد أشخاصاً وقرى إسلامية كانت توالي فرنسا بالويل إذا ما استمرت في ولائها .

١–الياس صادر : ثورة جبل عامل ١٩٢٠,/ ٤٨.

٢ـ نفسه .

ج ــ لماذا تركز الهجوم على عين إبل:

اللافت لنظر المتتبع لسير الأحداث الطائفية ، هو تعرّض بلدة عين إبل لحربة الإسلامي الشيعي دون غيرها من سائر القرى المسيحية في المنطقة . فبلدة رميش ، وهي أكبر من عين إبل ومجمل سكانها مسيحيون ، وموقعها الطبيعي يجعلها أسهل منالاً من عين إبل ، لم تتعرض إطلاقاً لرصاص المسلمين .

قد يكون التبرير التلقائي ، وجود الخوري يوسف (وكان يُعرف بالخوري محمد نظراً لصداقته مع رجالات المسلمين) في بلدة رميش ، هو الذي حماها من سطوة المهاجمين . ولكن هذا التبرير يسقط أمام اعتبارين:

ــ إن الهياج الذي رافق الهجوم الإسلامي يمنع الموازين الأخلاقية والمقاييس الإنسانية (الصداقة ، الوفاء...) من أن تأخذ مكانها في تحديد وجهة سير الأحداث .

ـ الاعتبار الثاني هو أنه كان لعين إبل ورجالاتها في تلك الفترة علاقاتهم المتينة مع رجالات بنت جبيل . ويصح القول العكس . فقد كان لمحمود الأحمد بزّي ، قائد الهجوم على عين إبل ، علاقة متينة مع أشخاص عديدين من تلك القرية . وله فيها جلسات سمر ومنادمة حتى ما قبل الهجوم بفترة بسيطة .

تبقى هناك ناحية من الممكن أن تحدّد إجابة مقبولة. فبلدة عين إبل

، بالإضافة إلى كونها مركز التحركات المعادية للحكومة العربية في المنطقة ، كانت المستفيد الأكبر من الامتيازات التي حاز عليها الموارنة أيام الانتداب الفرنسي . ذلك ماأغناها عن تعاطي العمل الزراعي الذي كان ركيزة الحياة الاقتصادية في جبل عامل ، إن كان في القرى المسيحية أو المسلمة على السواء . هذا الواقع الاقتصادي يظهر من الشّرارة التي اندلعت على أثرها الاحداث . وهي تعرّض جماعة من أهل عين إبل لبائعة شيعية كانت تبيع اللبن في قريتهم . إن وجود تلك البائعة في عين ابل له دلالة على أن في البلدة من يعيش في بحبوحة اقتصادية . وله دلالة ثانية على أن البلدة في حياتها الاقتصادية لم يكن تُعوّل على الزراعة وتربية الماشية . وهذا يعني توافر كثير من المخزونات والمنتوجات (أموال ، مصاغ ، ثياب ، أدوات منزلية) التي تفتقر إليها بيئة تعتاش من العمل الزراعي كالبيئة الإسلاميّة أو المسيحيّة في جبل عامل .

***

بعد هذا يمكن القول أن الأحداث الطائفية في منطقة بنت جبيل عام ١٩٢٠ تقنعت بقناع طائفي لتُخفي وجهاً سياسياً يتناسب مع مصلحة فرنسا وادعائها الحق في حماية مسيحيي المنطقة . ذلك ما لم تستطع إخفاءه حتى الجرائد التي جهدت في تصوير القضية من أساسها صراعاً طائفياً . فجريدة البشير، رغم تحليلاتها السابقة ، تعود وتضع يدها على الجرح ،

وتعترف بالدافع الرئيسي للأحداث حيث تقول : " **والآن نتساءل عمّا حمل هؤلاء الأجلاف على التعدي علينا والتشنيع بنا ، ولا عداوة سابقة بيننا وبينهم ولا دم مهدور . فما الذي دفعهم إلى اقتراف هذه الفظائع؟ لا نجد لذلك داعياً سوى ما عرفه القريب والبعيد من ميلنا إلى فرنسا وحبنا لها. ذلك ما أغاظهم وأغاظ زعمائهم" .(١) .**

إذن فالذي ساعد في إلباس هذه الأهداف قناعها الطائفي انسياق بعض المتنفذين في جبل عامل ، الذين رأوا فيها تدعيماً لمراكزهم ومتنفساً لرغباتٍ جامحة.

٢ ــ الهجوم على عين إبل:

أ ــ اجتماع بركة كونين:

بعد مؤتمر الحجير، وفي فترة الحرج والترقب الحذر، عُقد في قرية كونين القريبة من بنت جبيل في ٥ أيار ١٩٢٠ تجمُّع مسلح يزيد عن المائتي شخص . وفيه تقرر الهجوم على عين إبل . اللافت للنظر عدم معرفة أسباب هذا التجمع ومراميه حتى من الذين تواجدوا فيه .

يمر الشيخ أحمد رضا مروراً سريعاً على هذا التجمُّع حيث يقول : " **فاجتمع على بركة كونين يوم الأربعاء الماضي نحو مائتي رجل قد أثّر**

١-جريدة البشير, ٢٥٧٠, ١٨ أيار, ١٩٢٠, ص٢.

فيهم هذا الاستفزاز(١) تأثيراً بليغاً فتذاكروا بما يجب عمله وما آلت إليه الحال. (٢)

لكن ما يسوقه الشيخ عن اسباب هذا التجمع يُجانب الواقع . لأن استقراء أسماء المجتمعين لا يعطينا الدلالة على أن مكانتهم الاجتماعية تسمح لهم بالمذاكرة حول الأمن . ولأن الجو العام للتجمع لا يعطي الانطباع الذي يريده . فقد كان الهتاف الرئيسي عند المجتمعين :

ياما احلى شرب السيكارة   واليوم ذبح النصارى

وهناك من يشير بالاتهام إلى كامل بك الأسعد . فقد أخبرني حسين خليل (٣) أن الدعوة للمؤتمر وُجهت من قبل الحاج محمود حسن مراد وحسن مهنا بطلب من كامل بك . لكننا نجد عند الشيخ أحمد رضا ما يخالف هذا الرأي ، إذ يقول إن كامل بك أرسل كتاباً مع أعيان بنت جبيل لتهدئة المهتاجين . وكان الوفد مؤلفاً من الحاج علي يوسف والحاج حسن بزّي وعبد الحميد بزّي وعبد الحسين بزّي . ومعهم كتاب إلى رأس العصابة المهتاجة محمود أحمد بزّي ورفقائه . يأمرهم بالإخلاد إلى السكينة ، وترك

١- مقتل رجل شيعي من بلدة ياطر قبل التجمع بثلاثة أيام.

٢- أحمد رضا, مذكرات للتاريخ, العرفان, رقم ٣٣, ج١٠, ص١١١٩.

٣ـ جرت المقابلة في آذار ١٩٧٣.

الأمر بيد العقلاء. (١)

ب ــ انطلاقة الهجوم :

انطلق الهجوم على عين إبل من اجتماع كونين ، إثر ما أشيع من هتك امرأة مسلمة من قرية حانين ، بائعة لبن ، تصدّى لها في قرية عين إبل بعض أوباش القرية المغرورين بالفرنسيين . فعرّوها من أثوابها بالقوة, , وامروها أن تمشي أمامهم هكذا ذاهبة جائية . ثم تداولوها بالفاحشة علناً (٢)

لكن الأمر، كما يرويها أهالي عين إبل ، أن المرأة المذكورة ، واسمها "الخضرا" ، كانت تبيع اللبن في بلدتهم ، ويعرفها جميع أهل القرية. وفي أحد الأيام ، أثناء عودتها إلى قريتها ، عرّجت على كرم تابع لبلدة عين إبل بقصد سرقة اللوز. فتصدى لها نواطير القرية ، وعاقبوها بأن أخذوا غطاء رأسها ، كما كانت العادة المتبعة في القرى . فذهبت الخضرا إلى قريتها وصوّرت الأمر بنحوٍ مضخم جداً.

شارك في الهجوم على عين إبل شبان توافدوا من بنت جبيل ومارون الراس وعيترون وكونين وحانين وبيت ياحون ويارون . وقد اختلفت المصادر في تقدير عـددهم . فالمصادر المسيحية تُجمع على أنهم بلغـوا

١- أحمد رضا: المرجع السابق, م٣٣, ج٩,ص٩٩٣.

٢-نفسه : م ٣٣, ج /٩٩٢.

الألوف . فقد ورد في مجلة المشرق عن عدد المهاجمين : " **فلما كانت ظهيرة يوم الأربعاء ٥ أيار نظرنا إلى الألوف من المتاولة يسيرون من بعيد إلى جهة عين إبل** (١) . وتحدّد جريدة البشير هذا العدد بسبعة آلاف " **وكان العدو وتتوارد إليه النجدات من كل جهة حتى بلغ عدد الجميع زهاء سبعة آلاف**" (٢) . أما الأحياء من المسلمين والذين شاركوا في الهجوم فيوصلون العدد حتى ثلاثماية شخص على أبعد تقدير. وقد يعود هذا الخلاف في تقدير عدد المهاجمين إلى عدم التمييز بين مهاجمي البلدة وبين من دخلها بدافع السلب والنهب . ولكن،على أية حال ، لا يتجاوز عدد المهاجمين بضع مئات يقودهم محمود أحمد بزّي وأكابر القرى ، أمثال محمود جابر بزّي , وأمين محمود مرعي ، وعبد الحميد أيوب من بنت جبيل ، وعلي السيد محمد جعفر ، والسيد طاهر السيد علي من يارون ، وحسن مهنا من كونين ، وعلي طعّان علوية من مارون ، ونجيب خنافر من عيناتا ، ومحمود حسن مراد من عيترون .

استطاع المهاجمون دخول عين إبل بعد ساعات من بدء الهجوم ، حيث ارتُكبت فظائع ومجازر كثيرة . من قتل الشّيوخ والعجزة والأطفال .

١-كلمنتين خياط : المشرق, مجلد ٧٩١/١٨.

٢-. جريدة البشير, ٢٥٧٠ , ١٨ أيار ٢/١٩٢٠.

ويقال إن عدد القتلى قارب المائة . وبعد المجزرة بدأت أعمال السلب والنهب ، حيث لم يبق من عين إبل سوى الأحجار المحروقة والمبعثرة. (١)

٣ ــ نتائج الهجوم على عين إبل

أ : الخسائر المادية:

أ ــ تسببت الحادثة بخسارة كبيرة بالأرواح والممتلكات . تكبدها الطرفان : المسيحيون والمسلمون. هذا عدا الأحقاد والضغائن التي تملكت النفوس إثرها . فهناك أشخاصٌ من عين إبل عاشوا أكثر من عشرين سنة بعد الحادثة ، لم يدخلوا بنت جبيل مرة واحدة ، رغم أنها المركز الإداري والتجاري للمنطقة (٢) .

ولما كانت النتائج السياسية التي ترتّبت على تلك الحوادث أخطر بكثير من الخسائر المادية التي حدثت ، فإن البحث سيقتصر عليها . ذلك لأنها لأهميتها ما تـزال تؤثـر في الحياة السياسية لجبل عامل حتى اليوم.

ب ــ نجاح الخطة الفرنسية:

استطاعت فرنسا أن تجلو نقاط الضعف في المنطقة ، وأن تدفــع

١ـ جريدة البشير :٢٥٧٠، ١٨ أيار ١٩٢٠/١ .

٢ـ لتفاصيل وافية عن الهجوم وضحاياه راجع: الياس صادر, ثورة جبل عامل, ١٩٢٠ ص٥١- ٥٢- ٥٣- ٥٤- ٥٥.ـ الياس صادر, ثورة جبل عامل ١٩٢٠/ ٥٥.

الشعب إلى أن يعلن عن نفسه عدم الكفاية لما ينشده من التحرر والانعتاق . وبات لديها الدليل المادي لادعائها الحـقّ في حماية الأقليات المسيحية . بعد أن تنادى المسيحيون لطلب الحماية من فرنسا .

تقول جريدة البشير عن لسان مراسلها في عين إبل وقد تجاوز مطالبته بحماية فرنسية للمسيحيين إلى عرض أكثر وضوحاً يتفق والخطة الفرنسية :

" **مذابح ومجازر وتوحش وهمجية تعصب وجهل ، فكر وغرور . فإلى أين المصير؟**

تواطأ الجهل والتوحش واقترن التعصب بالهمجية فكان نتائجها ما كان...

فلتسمع أوروبة أولئك المطالبين باستقلالهم ، أولئك المحتجين الصاخبين ، فلتنظرهم أوروبة يقتلون من لا ينقاد لأهوائهم . يقتلون من كان من غير دينهم لأنه من غير دينهم . فلتسمع أُوروبة ، ولتُعطهم الاستقلال والتّحكُّم بغيرهم .

إننا نطلب لبنان الكبير . نطلبه مستقلاً . فلنعمل بسواعدنا ولو قليلاً لتحقيق ذلك. (١)

ـ جريدة البشير, ٢٥٧٠, ١٨ أيار, ١٩٢٠, ص١–٢.

ولئن كانت جريدة البشير تطالب بلبنان الكبير، فإن جريدة لسان الحال تذهب في تطرفها إلى أحد المطالبة بالمسير مع الركب الفرنسي . إذ تقول في افتتاحيتها :" **الاتحاد الاتحاد...إن من الواجب أن نقف مجهوداتنا على تحقيق أشرف الأماني الوطنية وأسماها ، وهي جمع كلمة الأمة لتسير يداً واحدة بمساعدة شقيقتها ومحررتها دولة الحرية وأن نجعل شعارنا : الاتحاد والاتحاد بمساعدة فرنسا . اتحاد الأخ الاصغربأخيه الاكبر ، ليُعلّمه ويُرشده ، ويسير به في طريق النجاح والسعادة**" (١) .

هكذا ، وبمساعدة أذناب الفرنسيين من الاقطاعيين النفعيين ، حسب تعبير السيد عبد الحسين شرف الدين ، الذين كانوا يثيرون حماسة الفتيان العرب من جهة أُخرى ، ويُطمعونهم وبغرّونهم بعواطفهم . ليتلاقى طرفا الحبلة الاستعمارية ، ويبرم أمر التدبير (٢) استطاعت فرنسا أن تكسب موقفاً جديداً ، مهّد لها القبام بحملوٍ عسكرية كبيرة على جبل عامل . بحُجّة الانتقام لمسيحيي المنطقة ، وحمايتهم من اضطهاد المسلمين .

ج ـــ الحملة الفرنسيّة :

في ١٨ أيار ١٩٢٠ سيّرت فرنسا إلى جبل عامل حملةً انتقاميّةً ،

---

١ ـ لسان الحال ٣٩٢ ــ٨٠٤٢ ، ١٠ أيار ١٩٢٠ / ١ .

٢ ــ السيد عبد الحسين شرف الدين : الألواح ، العدد ١٥ / ١٤ .

عددها ٤٠٠٠ جندي، عدا المُتطوّعة ، بقيادة الكولونيل نيجر .بهدف القضاء على الحركة الوطنية في جبل عامل . ولم تلقَ هذه الحملة سوى مقاومة محدودوة في وادي الحريق قرب تبنين .

يقول الشيخ أحمد رضا :

" سمعنا اليوم أنه دخلت الحملة الفرنسية المؤلفة من ٤٠٠٠ رجل وادي الحريق ، بعد اجتيازها سهل صور . فعرض لها الثائر صادق حمزة ، ومعه بضعة عشر رجلاً ، فصدّوها عن التقدّم ، بما كان مع الثائرين من الذخيرة القليلة ، مدة سبع ساعات . حتى إذا نفدت ذخيرتهم ، ولم يمدّهم أحد ، تراجعوا . ولم يُفقد منهم أحد " (١)

هنا لابد لنا من إيضاح يتعلّق بعدم مقاومة العصابات للحملة الفرنسيّة . خاصةً وأنه قد سبق القول عن قوّة حركة العصابات وسيطرتها ، وقدرتها على التصدّي والمواجهة .

إن عدم مقاومة جبل عامل الحملةَ الفرنسيّة يعود لمجموعة عوامل . تضافرت فيما بينها ، فمكّنت فرنسا من أن تكتسح منطقة جبل عامل بسهولة بالغة .

هذه العوامل هـي :

---

١ أحمد رضا : مذكرات للتاريخ . العرفان م٣٤ ، ج٢ /١٩٩ـ٢٠٠ .

١ ــ كثافة الحملة الفرنسية وتسلحها بالأسلحة الثقيلة المدعومة بالطائرات . إذ أن اهتمام القيادة الفرنسية بإحراز نصر سريع معجَّل دفعها لاستقدام قوات كبيرة من خارج لبنان .

يقول أمين سعيد بعد أن يتحدث عن العصابات ونشاطاتها وسيطرتها على منطقة جبل عامل :" **فنقلت فرنسا جانباً كبيراً من حملتها العسكرية على كيليكيا إلى سوريا . بعد اتفاقها مع الترك . وقد تنازلت لهم عن تلك المنطقة العربية كلها**" (١) .

(٢) عدم تمكّن المدد السوري من الوصول. إذ أن الملك فيصل كان قد وفى بوعده الذي ورد في مكانٍ سابق ، أثناء حديثنا عن مهمة وفد مؤتمر الحجير في دمشق ، وجهز إلى جبل عامل قوافل من العتاد والأسلحة والأطباء. ولكن الزعيم كاملاً أرجع ذلك كله ، تعويلاً على الحلول السلميّة وأخذاً بالأناة. (٢)

٣ـ الأمر الذي أصدره كامل بك الأسعد إلى عامة القرى التي تمر بها الحملة بعدم المقاومة . وكيف يقاومون بلا عتاد ولا سلاح ولا مدد. (٣)

١ـ أمين سعيد, ثورات العرب في القرن العشرين, دار الهلال, د.ت /١٠٢.

٢ـ السيد عبد الحسين شرف الدين: صفحات من حياتي, الألواح, عدد ١٦ / ٩.

٣ ــ أحمد را : مذكرات للتاريخ . العرفان م ٣٤ ، ج٢ / ٢٠٠ .

د ـ أعمال الحملة الفرنسية

مارست الحملة الفرنسية أقسى ضروب العسف والابتزاز والإرهاب . وحجتها في ذلك الانتقام لأهالي عين إبل .

ولإعطاء صورة عما قامت به يحسُنُ إيراد نص استحصل عليه الشيخ سليمان ظاهر. يروي فيه متطوعٌ رافق الحملة الفرنسية وساهم بأعمالها في جبل عامل . وقد أبقاه الشيخ بنصه العامي . وخصّ به مجلة العرفان للعبرة والتاريخ ، قال :

" **سافرنا من النبطية نهار الخميس ١٨ أيار سنة ١٩٢٠ . فكانت طريقنا على الزواتر (الزواطر)، ومنها إلى الجوهرية ، ومنها إلى القعقعية، ومن بعد قطعنا الجسر وطلعنا إلى فرون . فكان وصولنا إليها الظهر فحططنا فيها ، فما وجدنا من سكانها أحد ، فنهبناها. وبعد برهة طرق سامعنا طلق من الرصاص . ومن بعد طلع إطلاق شتى فتفرق الجند، وهجمنا نحن المتطوعين قدام الجيش على العدو. وأطلقنا عليهم الرصاص حتى أوصلناهم إلى الغندورية ، فكانت ساعة مهولة وقد اشتعل فيها النار حتى أرفقنا عليهم وخلص منهم الخرطوش... . حتى وصلنا ضيعة تكنى بأرزون فما وجدنا بها أحد فنبهناها ثم حرقناها.... ولما طلع الصباح أخذنا بالمسير. أقبلنا على مساواة (مجد ل سلم) (تولين) فصوبنا المدافع عليها وهدمنا منها عمارة محمد بك. ثم أقبلنا على تل تبنين وإلا أنصبّ علينا**

الرصاص مثل زخّ المطر . فانتشر الجيش وهجمنا على العدو . واشتغل الرصاص حتى أرفقنا عليهم . فقتلنا منهم ثلاثة ، وأربعة مجاريح ، . ثم نزلنا اليهودية فسلّمت... وعند الصباح سافرنا على عيناتا ، فما وجدنا أحد فنبهناها وأكلنا دجاجها ودبّينا فيها الحريق فردمناها ثم طلعنا على بنت جبيل (١) فما وجدنا فيها أحد . فكسرنا فيها يومين ، ما أقبل علينا أحد.

---

(١) في قصيدة للشيخ محمد نجيب مروة تغلب عليها روح الفكاهة ، تصوّر حالة بلدة بنت جبيل بعد الحملة الفرنسية . وفيها يتطرق إلى أحوال جبل عامل .

وهذه القصيدة تدور حتى وقتنا الحاضر على السنة الصغار في منطقة بنت جبيل.

يقول الشيخ:

دخلك يا حادي الركبان عرّج عا جبل عامـل
وإن جزت بهاك البلدان سلّم عالبيك الكامـل
سلّم عامير العربـــان هللي من ولد وائـــل
قُل لو يا شيخ الأعيـان ليش بلادك محترقـــة
أنت ما كنت مســرور بتشريـد النصـــارى
كنت مخالف للجمهـور لمّن صارت هالغـارة
ومع هذا المال المكسور ما أخــذت ولا بـــارة
ومع هذا ما انك مغـدور ولـقّـي كنّك بتلقّــي
يا ما لحـف وتراحـــات وأغلال وأموال وطرش

أخذتوها من الساحـات وما شبع لو منكم كرش

ومن بعد هذا راحــت لحانا ولحاكم بـــرش

ولو قمتونا عـالراحـات ما عاد بدنا بهالرفقــة

هذي مدينة بنت جبيـل عنوان بــلاد بشــــارة

اجــــاها نيجر بالليــــل وحكّم فيهــا الطيارة

حكم عليها بالويـــــــل وعلّمها كيف الغــارة

اكلتهـــا كمّــه وذيـل وشو كان بدا بالهلعلقة

ياحيف ويا عيب الشوم عالأبطــــال الممتـــازة

تتخبّا بين الكـروم عنـــد حضور الوزازة (الطيّارة)

لمّا ها جـرت فطّـوم اخذت ابريق الطبازي

وحملت منشّل مقسوم والصيصان مع القرقة

ياناري على بو حسين حمــــل شباشيلو وراح

حمل عا كتفو صبيين عاشكل الخُرج الملاّح

سكن دارو غراب البين وصارت للدواب مراح

وبعد سـنة أو ســنتين إجــا ليهــا بالسرقـة

فنبهناها وحرقناها . ومن بعد صوبنا عليها المدافع فهدمناها وفي اليوم الثالث طلعنا على مارون حرقناها...

وأمسينا بتل قبال بلد اسمها فاره . فصوبنا المدافع عليها وضربناها . فكنا نري العالم تنغل مثل النمل . واشتغل عليهم المترليوز فقتل منهم كثير وجملة مجاريح. (١)

وهكذا نرى أن الحملة الفرنسية أصابت عدداً كبيراً من قرى جبل عامل بالدمار . إذ أن " **المتطوعين كانوا يجمعون أثاث البيوت ويضرمون فيها النار بعد أن ينهبوا الأواني والأشياء التي يستطيعون حملها . ولكن النار كانت لاتلبث أن تنطفئ . فجاء أحد الضباط وقال لهم : لتشتعل النار جيداً يجب أن تحدثوا ثقوباً في السقف.**" (٢)

هـ ــ الغرامة الحربية:

في الخامس من حزيران ١٩٢٠, وفي اجتماع عقده الكولونيل نيجر قائد الحملة الفرنسية مع أعيان جبل عامل, أوجب نيجر على العامليين أن يتحملوا أثقال التعويضات عن الخسائر التي ولدتها هذه الحوادث المحزنة .

١ـ الشيخ سليمان ظاهر, نبأ عما عاناه جبل عامل, العرفان, م٣٣, ج٦,ص٦٠٩-٦١٠.

٢ ــ الياس صادر, ثورة جبل عامل مئة ١٩٢٠, ص٥٨.

وبعد ذلك قرأ على الحضور شروط الجنرال غورو . وهي تنص على التعهد بجمع السلاح ، وحماية المسيحيين ، وإرجاع ما لم يتلف من المنهوبات . ثم التعويض وقدره مائة ألف جنيه ذهباً ، تستعمل للتعويض عن الذين نُكبوا أو سُلبوا . وهذه الغرامة توزع على القرى بمعرفة المتصرف والقائم مقامين ، بنحوٍ يناسب ثروتها ومبلغ اشتراكها في الحوادث. (١)

هذه الغرامة التي فرضتها سلطات الاحتلال الفرنسية تفوق طاقة جبل عامل بكثير في الأحوال العادية . فكيف بها والجبل قد تعرض للنهب والسلب . ثم أنها لم تقف عند حدود المائة ألف ليرة دفعتها البلاد من دمها وأملاكها خمسماية . فكان الزائد من نصيب السماسرة والماديين من باعة الضمائر والأوطان . (٢) .

يقول أمين الريحاني : "**وجاء بعد خراب البصرة الكولونيل نيجر لينكل بالعصابات.ففرض على أهل جبل عامل مئة وخمسين ألف ليرة ذهباً. وفوّض إلى حاكم صيدا العسكري ورجاله ،ومنهم ثلاثة من الصوريين ، بجمعها . فجمعوا ضعف المئة والخمسين ألف ليرة بطرائق لا حاجة لذكرها الآن . وقال العارفون المدققون إن الجباة الماهرين جمعوا أربعمئة وخمسة**

١-جريدة لسان الحال, ١٢ حزيران, ١٩٢٠, ص٢.

٢ـ السيد عبد الحسين شرف الدين, مجلة الألواح, العدد ١٦, ص٩.

وثمانين ألف ليرة, فدفعوا تعويضاً لأهل الجديدة خمسين ألف ليرة منها. وأطلقت الحكومة على شارع من شوارع بيروت اسم الكولونيل نيجر." (١)

هذه الغرامة الضخمة التي فرضت على منطقة خارجة من الحرب، كان لها أثرها الكبير في تردّي الوضعين الاقتصادي والاجتماعي لجبل عامل . خاصة وإن النقد لم يكن متوفراً . فكان على العامليين أن يدفعوا من ممتلكاتهم لتأمين تلك الضريبة . وهنا تنبغي الإشارة إلى أن ما قبضه المسيحيون من تعويضات كان زهيداً بالنسبة للغرامة . فقد دفع الفرنسيون مئتي ليرة فقط عن كل شخص قتل في الحوادث . واحتفظت الحكومة بباقي الأموال .

كيف انتهت الحملة:

الاجتماع الذي عقده الكولونيل نيجر في ٥ حزيران ١٩٢٠ مع أعيان أقضية صيدا وصور ومرجعيون من مسلمين ومسيحيين وبلغ عددهم أكثر من ٢٠٠ شخص كان نهاية مطاف الحملة الفرنسية وفي هذا الاجتماع ألقى الكولونيل نيجر خطاباً شديد اللهجة موجه إلى المسلمين الشيعة ثم تلا عليهم الأحكام. (٢) قائلاً : " **إن الحكومة يسؤوها أن تحكم على وجهاء الشيعة**

١ـ أمين الريحاني, ملوك العرب: ٣١٨/٢.

٢ـ يورد خير الدين الزركلي في (ما رأيت وما سمعت/)١٤: قرر المجلس العسكري التابع

للفرقة الثامنة من الجيش الافرنسي في الشرق والمنعقد في دمشق في ١٩ أغسطس أن الأشخاص الاتية أسماؤهم مجرمون بالاتفاق والتحريض ، لكونهم عملوا الدسائس والتفاهم مع أعداء الحكومة الافرنسية لتسهيل مقاصدهم. ولذلك حكم عليهم غيابياً بالإعدام ومصادرة أملاكهم. ويعتبر هذا الحكم نافذاً الإجراء منذ ١٠ أغسطس ١٩٢٠. وفي ص١٦ لائحة بأسماء المحكومين وهم: صادق الحمزة, محمود أحمد بزّي, رياض محمد حسن فرحات, عبد المجيد محمد بزي, محمود فرح سليمان طرفة,الشيخ عبد الله عز الدين,حاج فياض شرارة, محمد سويدان, أدهم خنجر, محمود قاسم, عبد الحسين سرور, نمر بلوز, محمد تامر.

لكن جريدة لسان الحال في عددها الصادر في ٩ حزيران ١٩٢٠, ص١, تعدد بالإضافة إلى هؤلاء التالية أسماؤهم:

موسى بوزكلي ، علي حرب, سيد يوسف تامر, يعقوب قرواني, حسين علي مدا من الريحان, محمود محمد قاسم بركات من البازورية, رشيد غصين (قنيطرة), وطعّان الخليل من العديسة ، وأخواه رشيد وحسن , سليمان طباجة من العديسة ، شكيب عبد الله من الخيام ، لطفي عبد الله من الخيام , نجيب عبد الله من الخيام , محمد عرب من الخالصة , كميل اليوسف من الخالصة , حاج محمود من الخالصة , عزوز مصطفى من الدورة ، كامل شحرور من هونين , محمد حمدان من العديسة.

حكم على جميع هؤلاء بالإعدام وضبط الأملاك, كما وحكم على التالية أسماؤهم بالنفي المؤبد وضبط الأملاك : كامل بك الأسعد , عبد الحسين بزّي , سيد عبد الحسين شرف الدين , مارد الغلمي , حسين نصرالله سعد , حاج جواد من الخيام, حاج خليل من الخيام , عائلة فرحات من برعشيت.

بهذه الأحكام الصارمة . لكنهم هم الجُناة على أنفسهم .

بعد تلاوة الاحكام ، قال الكولونيل نيجر : " **إن الحكومة أعدمت جميع الثوار ، الذين حاولوا متابعة تحركاتهم أثناء وجود الحملة ، وعددهم يُقدّر بثلاثين** " .

ثم طلب من الحاضرين أن يُعلنوا قبولهم الشروط الآتية لاسترداد الحملة . وهي :

١- دفع غرامة قدرها مائة ألف جنيه مصري.
٢- إرجاع المسلوبات.
٣- إعطاء تعهد خطي بالمحافظة على المسيحيين الذين يبقون في بلادهم.
٤- جمع الأسلحة من أقضية صيدا وصور ومرجعيون.
٥- تسلّم المجرمين أينما وجدوا.
٦- إلقاء المسؤولية على عواتقهم عن كل أمر يجد وكل قتيل يقتل في أحد الأقضية الثلاث. (١)

وقد أمهل الكولونيل الحاضرين إلى الساعة الثالثة بعد الظهر ليتداولوا ويعطوا الجواب على شروطه.

١- أمين سعيد , ثورات العرب في القرن العشرين/١٠٢.

وفي الوقت المحدّد قدموا تعهداً خطيّاً ذيلوه بتواقيعهم متعهدين بدفع الغرامة تعويضا عن الخسائر في القرى المسيحية . وبمساعدة الحكومة على جمع الأسلحة من الأهالي وتسليم المجرمين ثم اضافوا : ولا نقدر أن نحافظ على مسيحيي الأقضية من هجوم خارجي . وإنما نكون مسؤولين إذا اشتركت قُرانا في الهجوم . وبما أننا لا يمكن أن نكون في وقت واحد في كل مكان ، لايسعنا أن نحمل مسؤولية ما يقع على عواتقنا . غير أننا سنبذل الجهد للحيلولة بكل قوانا دون وقوع حوادث جديدة تستوجب المسؤولية. (١)

هكذا استطاعت الحملة الفرنسية انتزاع المقاومة العاملية وتطلعها نحو الوحدة السورية . واضطرت رجالات جبل عامل إلى توقيع صك الاستسلام تحت وطأة ما أحدثته تلك الحملة من خراب ودمار.

١- نفسه / ١٠٣.

ثانياً: الأوضاع في جبل عامل بعد مؤتمر الحجير:

١-الأوضاع السياسية:

أ- ضم جبل عامل إلى دولة لبنان الكبيروأثره:

نجاح فرنسا باكتساح جبل عامل سهّل لها ضمه إلى دولة لبنان الكبير. التي أعلنهاغورو في١/٩/١٩٢٠. وبذلك وضعت حداً لتطلع العامليين للانضمام لسوريا ، الذي طالما دفعهم لرفض أشكال الوجود الأجنبي ، سواء كان الانتداب أو الحماية . وبالرغم من هذه الهوية السياسية الجديدة التي أعطتها فرنسا لجبل عامل ، فإن الأمل بالانفصال عن لبنان والانضمام إلى سوريا ، بقي يراود مخيلة العامليين وعلى الأخص في بنت جبيل . حيث كانت الشعارات التي رفعها طلاب الوحدة السورية آنذاك المحرك الأساسي لأفعال العامليين . كما أن العداء لفرنسا كان مؤشراً لكثير من الفئات في المواقف الكبرى كالانتخابات مثلاً. (١)

١ـ في الانتخابات التي جرت سنة ١٩٣٥ في دوائر النبطية ، التف العامليون حول عبد اللطيف الأسعد ضد بهيج الفضل المتعاون مع الفرنسيين . وكان هتاف العامليين الرئيسي:

بشكوف خبّر دولتك رئيســـنا عبد اللطيف
باريس مربط خيلنـا ورصاصنا يلحق جنيف

كان انضمام جبل عامل إلى دولة لبنان الكبير، فاتحة لدخوله سياسة التفرقة الطائفية وحتى العنصرية ، التي لم يتورع المستعمرون عند انتهاجها ، والتي كانت تتغلغل في كل مكان ذي صلة بالفرنسيين قربت أم بعدت . وكانت تُغـذّي بمختلف الوسائل وباستمرار . من هنا فإحصاءات النفوس وسجلاتها وبطاقاتها تقـوم على اعتبارات طائفية . وانتخابات المجالس النيابية . وكذلك القوات المسلحة والوظائف العامة كانت تقوم كلها على هذا الأساس. والذي سهّل مهمة الفرنسيين التعاون الذي كان قائماً بين بعض المتنفذين وبعض المؤسسات الدينية ومختلف الدوائر الفرنسية .

ومن الطبيعي أن يعود مردود هذه السياسية السيئة على جبل عامل. لأن مقاومته للاحتلال والانتداب الفرنسي دفعت بالسلطات الفرنسية لإهماله سواء عن طريق حرمانه الاستفادة من مرافق الدولة العامة(ماء، كهرباء، تعليم...) أم بإعطائه قسمة صغيرة من توزيعات الوظائف العامة. وقد عبّر العامليون عن حالتهم هذه في كتاب رفعوه للجنرال غورو سنة ١٩٢١ جاء فيه :

" **يترقب منك جبل عامل ألا يكون كما هو الآن محروماً من الحقوق المدنية وهو يؤلف عشرين في الماية من لبنان الكبير**" .

" **يترقب منك الضرب على أيدي الأشقياء ومناصريهمالذين يعبثون بالأمن بحجة الانتقام والتعصب المذهبي ليعمّ الوفاق بين أبناء الوطن** " .

"وأخيراً يترقب منك العمل بشعار حكومتك الحرة (الحرية ، الإخاء، والعدل والمساواة)". (١)

ب- حرمان جبل عامل من ممارسة حقوقه السياسية:

بالرغم من تمكن فرنسا من ضرب مقررات مؤتمر وادي الحجير, وشل حركة العصابات الوطنية إلى غير رجعة, فقد حُرم الشعب في جبل عامل من ممارسة حقوقه السياسية والتشريعية, بالرغم مما حاولت السلطة الفرنسية إظهاره, بالعمل على مراعاة ما اقتضاه الانتداب بضرورة إيجاد نظام أساسي في البلاد. وذلك بخلقها جهاز سلطة محلية من أبناء جبل عامل.ولكن الواقع يدلنا على أنها لم تكن لتستطيع الحركة عملياً إلا بمقدار ما تريده السلطة المنتدبة ، وفي الإطار الذي ترسمه. لأن صلاحياتها كانت محدودة جداً. وفوق هذا مُقيّدة بتخطيط المستشارين وغيرهم من الجهاز الفرنسي الحاكم. لأن المستشارين كانوا يشرفون على أغلب المرافق والمصالح كالمالية والقضاء والزراعة والتعليم والجمارك والبريد والبرق والمصالح الاقتصادية ومراقبة الشركات ذوات الامتياز والمطبوعات.

هذا الحكم المباشر، من حيث الأساس ، حرم الشعب من حقه في السيادة ، وجرّده من حقوقه السياسية . وهذا ما أعاق تطوير البلاد ونمائها.

١- العرفان: م٦ , ج ٢٩٥/٢.

١ – حماية جبل عامل من الوقوع في أيدي الصهاينة :

كانت السياسة الفرنسية في الشرق العربي تصطدم بمنافس خطير هو انكلترا المحيطة بسورية من الجنوب والشرق . وكانت سورية بالنسبة إليها مفتاحاً هاماً من مفاتيح الهند ، وعقدة مواصلات هامة بين ثلاث قارات وممراً للبترول ، لذلك كان يهمها أن تُقصي فرنسا عن سوريا أو عن أجزاء منها ، وأن تُحِلّ نفوذها محل النفوذ الفرنسي.

هكذا اتجهت الأنظار البريطانية للسيطرة إلى جبل عامل . وقد أعرب الانكليز عن رغبتهم هذه عندما استقبلوا مهاجري عين إبل في صفد وحيفا وأكرموهم وقدموا لهم كل مساعدة . وبعد أيام زار القائد العسكري الانكليزي لمنطقة صفد أهالي عين إبل وخطب فيهم قائلاً :" **يا أهالي عين إبل إن فرنسا انتصرت على ألمانيا أقوى دولة في العالم ولم تستطع حمايتكم؟ قدموا عرائض تطلب الحماية الانكليزية ونحن على استعداد لإعادتكم إلى قريتكم ولبناء بيوتكم وتأمين الحماية لكم.** (١)

هذا الموقف الانكليزي من مهاجري عين إبل حلقة من مخطط عام كانت بريطانيا تسعى لتنفيذه بالاشتراك مع الحركة الصهيونية . لأن هذه الحركة ، بعد البدء بتنفيذ وعد بلفور ، طالبت بشخص هربرت صموئيل بضم

١–الياس صادر: ثورة جبل عامل سنة ٦٩/١٩٢٠.

جنوب لبنان حتى نهر الليطاني وسهلي حوران والجولان في سوريا. وكان من الطبيعي ان ترحب بريطانيا بهذا الطلب فهو يوسع منطقة نفوذها. فوعد وزير خارجيتها بلفور بأن يسعى إلى تحقيقه . وأعطى اللورد كرزون الوعد نفسه في تشرين الثاني سنة ١٩١٩ . لكن الفرنسيين رفضوا المطالب الصهيونية ، وتمسكوا بنص معاهدة سايكس بيكو السرية ، التي تجعل من فلسطين منطقة ضيقة . وعبثاً حاول الصهاينة أن يُقنعوا الفرنسيين بضرورة التنازل لهم عن قسم من الأراضي اللبنانية السورية . فاجتمعوا برئيس الجمهورية ورئيس الوزراء ووزير الخارجية والمندوب السامي في بيروت . ولكن المُحادثات لم تثمر عن شيء. (١)

٢-الأوضاع الاقتصادية:

فشل مؤتمر وادي الحجير تحت وطأة الحملة الفرنسية التي اجتاحت جبل عامل . ونجاح الخطة الفرنسية في ضمه إلى دولة لبنان الكبير، كان له أثره الواضح في تردّي الحياة الاقتصادية ، نتيجة عوامل من نقاط ثلاث:

١- الضرائب.

٢ـ تدهور الزراعة.

٣ـ تدهور النقد الورقي السوري.

١-خلدون الخالد ، الجنرال سبيرس طرد فرنسا ، ملحق جريدة النهار, ٢٨ت ١٩٧١/٢.

أ- الضرائب:

إن الغرامة الحربية الجديدة ، التي أُضيفت إلى مجموع الضرائب السابقة التي كان يرزح تحتها الفلاحون ، جاءت لتزيد الفلاح إفقاراُ وبؤساً. خاصة أن السلطات الفرنسية ، عندما أخذت بتحصيل الضرائب ، استخدمت بالإضافة إلى القوة العسكرية المتنفذين والوجهاء في جبل عامل . فاغتنم هؤلاء الفرصة لتحصيل الضريبة مضاعفةً مرات عدة . وأمعنوا في البلاد سلباً ونهباً . فنضبت ثروة جبل عامل ، ووقع الفلاحون في مهاوي الفقر . بحيث باعوا ، من أجل دفع الضريبة ، مواشيهم ودواجنهم , ثم أثاث بيوتهم ، وحتى مؤنهم . خاصة أيضاً أن السلطات كانت ترسل جباتها إلى القرى ، حيث يقيم هؤلاء ، ويعتمدون إزعاج السكان ، ويحملونهم نفقات إقامتهم . عند ذلك كان الأهالي يسلّمون ما يملكون إلى لجان تقدرها بأقل من أسعارها بكثير.

يتحدث الدكتور عبد الرحمن السباعي عن هذه النقطة فيقول:

" **لم يكن في صندوق الدولة دراهم للنفقات , فصدرت الأوامر بتحصيل الأموال الأميرية الباقية والقديمة قسراً وجبراً . وما مضى قليل من الأيام حتى كانت العساكر المليس** (عساكر ضباط الاستخبارات والدرك ، وهي كلها مؤتمرة بأمر الفرنسيين) **تجوب القرى لتجمع الأموال مع الجباة ، تبيع الحيوانات ، وتحجز العلف والمؤونة ، بلا رحمة ولا هوادة ، إلى أن**

جمعت لبيت المال المقدرا المطلوب.(١)

ب-تدهور الزراعة:

بالرغم من هذه الأساليب العاتية التي استعملتها السلطات المحتلة بقي الفلاحون عاجزين عن تسديد الضرائب المتلاحقة ، نتيجة استمرار تطور الزراعة بوتائر متدنية وذلك يعود إلى :

ـ ازدياد الضرائب, (٢) التي امتصت اندفاع الفلاح في استغلال أرضه ، لأنه شعر أن ما ينتجه لم يعد ملكاً له .

ـ ندرة الحيوانات ، وخاصة البقر. وهي الركيزة الأساسية في العمل الزراعي ، بسبب المصادرة لها من قبل جباة الضرائب .

١ـ الدكتور بدر الدين السباعي : أضواء على الرسمال الأجنبي في سوريا . دمشق ١٩٦٧/٢٣٨.

٢ـ . من عريضة رفعها أهال مرجعيون سنة ١٩٢٢ إلى المفوض السامي الفرنسي :

" وقد زاد بلاؤنا, إنه بينما كنا ننتظر من حكومتنا مساعدتنا على اجتياز هذه المرحلة الصعبة الخانقة من الحياة ، نراها تبعث بجباتها تحجز نتاج أرضنا وقوتنا الضروري من الحبوب . بحجة أن علينا أموالاً لابد من دفعها. فنرى أمام أعيننا مزروعاتنا المحجوزة غنيمة لطيور السماء وديدان الأرض تنعم بها ، ونحن نموت أمامها جوعاً. وليس باستطاعتنا أن نمد إليها يداً" . (نفسه/ ٢٣٩)

ـ ازدياد تملك الإقطاعيين , الذي كرسته فرنسا وأعطته صفة قانونية . وهذا التملك شكّل عقبة رئيسية في طريق تقدم الزراعة . لأن الإقطاعي يقنع بما تعطيه الأرض ، ولا ينفق في سبيل تطويرها وتحسينها ، بنحوٍ يدفع بها إلى إنتاج جيد كماً وكيفاً.

ـ ازدياد حركة الهجرة التي حرمت الزراعة من قوة العمل اللازمة.

ت ـ تدهور النقد الورقي السوري :

عندما نزل الحلفاء لبنان سنة١٩١٨ ، استبدلت القيادة الانكليزية أوراق النقد التركية المتداولة في المنطقة بالجنيه المصري الذي يصدره البنك الوطني المصري ، المؤسسة البريطانية الخاصة. وأجبرت الناس على التعامل بها. وفي ١٩٢٠/٣/١٣ أصدر الجنرال غورو قراراً اعتبر بموجبه ورق المصرف السوري العملة الرسمية في أراضي المنطقة الغربية اعتباراً من أول أيار ١٩٢٠. وعليه فكلّ شخص يوجد بأيّ صفةٍ كانت في أراضي هذه المنطقة مكلف بقبول هذه العملة لأجل كل المعاملات التي يجري بها كائناً ما كان سببها وغايتها. (١)

بعد الحرب العالمية الأولى عرفت فرنسا تضخماً نقدياً كبيراً ، من نتيجته تزعزع الثقة بالفرنك الفرنسي. مادفع الرأسماليين إلى تهريب رساميلهم

١ـ بدر الدين السباعي , المرجع السابق / ٩٥.

إلى بلدان أجنبية . وازدياد الطلب على النقد الأجنبي . ما أدى إلى هبوط قيمة الفرنك. (١)

وطبيعي أن تواكب الليرة السورية الفرنك الفرنسي في هبوطه وتقلباته كلها(٢) .

انعكس هذا الهبوط في قيمة الليرة السورية على مجمل نواحي الحياة الاقتصادية.

يقول أمين الغريب في مجلة الحارس:

"**كل شيء جامد هذه الأيام ماخلا الليرة السورية وأسعار المأكولات. أما غيرالمأكولات ، فلم نعرف أسعارها ، لأن سوقها كانت جامدة كالقطب الشمالي . وتدحرجت الليرة السورية نزولاً بسرعة عظيمة لامثيل لها إلا سرعة الاسعار في الارتفاع . وجرفت معها ثروة اللبنانيين ، جرفاً أعاد إلى الأذهان ذكرى الجراد الذي انتشر في لبنان أيام الحرب" . (٣)**

١ـ نفسه / ٩٥.

٢ ـ في أيار ١٩٢٠ كانت قيمة الدولار ٧٣ قرشاً سورياً تقريباً . اي ١٣٧ سنتاً لليرة السورية . أما في عام ١٩٢٧ فأصبح سعر الدولار ١٢٨قرشاً سورياً ، أي قرابة ٦٢ لليرة السورية . السباعي : نفسه .

٣ـأمين الغريب : مجلة الحارس, بيروت١٩٢٤: ١١/٣٣.

هذا التقلب في العملة السورية أدى إلى زيادة العلاقات الاقتصادية مع فلسطين ، التي كانت ترتبط في عملتها بالجنيه الانكليزي المستقر. وقد ظهرت آثار هذا التوجه الاقتصادي في جبل عامل بتداوله للنقد الورقي الفلسطيني . وفي الأسواق التجارية التي أقيمت على جانبي الحدود (اسواق سوق الخان ، بنت جبيل وعديسة ، في الجانب العاملي . وأسواق الخاصة والصفصاف وصفد في الجانب الفلسطيني).

٣ - الأوضاع الاجتماعية:

أ- إحكام سيطرة المتنفّذين:

برز الملتزمون والمرابون في العهد التركي من جديد في عهد الانتداب الفرنسي (آل بزي ، آل عبد الله ، آل فرحات ، آل غندور) . لأن المرحلة الأولى من الاحتلال الفرنسي أجهزت علي البقية الباقية من الملكيات الصغيرة . وكرّست سيطرة شبه كاملة على الأرض من قبل المتنفذين . لأن عدم قدرة الفلاحين على دفع الأموال التي ترتّبت من جراء دفع الضريبة الحربية دفعهم إلى رهن ما تبقى لديهم من ممتلكات ، أو رهن حتى قوة عملهم . وما أن تمضي بضعة شهور على هذه الرهونات حتى تصبح بتصرف المرابين .

وممّا ساعد في تدعيم مراكز المتنفذين في جبل عامل ، غلاء المنتوجات والمحاصيل الزراعية ، بسبب ضعف القوة الشرائية لليرة السورية .

وبما إن المتنفذين غير مجبرين على بيع المحصول حين جنيه , ولا يخضعون لسلطة الوسطاء الذي يخضع لها المنتج الصغير. كما أنهم يتمتعون بشروط مفضّلة في حقل الاعتماد: فالبنك يقرضهم بالفائدة العادية , وهم يقرضون الفلاحين بالفائدة الربوية الباهظة (١) . وبذلك استطاعوا أن يحافظوا على مكانتهم الاجتماعية المميزة ، لا بل أن يكرّسوا تلك المكانة أمام التدهور الذريع الذي أصاب جماهير الفلاحين.

الخطوة التي لجأً إليها الانتداب الفرنسي، بعد إحكام سيطرته السياسية والإدارية، إصدارقانون تموز ١٩٢ عُرف بقانون العلاقات الزراعية.

جاء هذا القانون ليكرّس سيطرة الإقطاعيين وكبار الملاكين التامة على معظم الأراضي الصالحة للزراعة ، وعلى مساحات واسعة من الأراضي الحرجية (٢) . وبذلك حرم الأكثرية الساحقة من فلاحي جبل عامل من حق الملكية . وبالتالي أخضعهم للسيطرة السياسية والاقتصادية للمتنفذين (٣).

١بدر الدين السباعي: المرجع السابق/ ١١٨.

٢ـ مخطوطة حسن سليمان.

٣ـ بلغ عدد المحرومين من الملكيّة في لبنان حسب تقرير المفوض السامي سنة ١٩٢٢ ، ٧٩٠٠٠شخص . وكان عدد السكان حسب إحصاء سنة ١٩٢٣ ٦٢٨٨٦٣. تبدو أهمية هذه الأرقام في تصوير النسبة الحقيقية للمحرومين من الملكية ، إذا استثنينا سكان المدن كبيروت وطرابلس وزحلة وصيدا .

ولإضفاء الشرعية على هذه الصيغة شكّلت سلطات الانتداب لجانا سُميت بلجان الطابو . كُلفت بتسجيل العقارات , مكتفية بشهادة المختار ، الذي كان يُعيّن عادة من قبل المتنفذين . وهذا بدوره لا يمكن أن يفيد إلا لصالحهم . بهذه اللجان تمّت عملية الاستملاك تحت ستار قانوني , فإذا كانت المساحة في العهد التركي ، الدفتر الخاقاني ، تعتمد على إفادة الوكيل الدوري بغياب الفلاح صاحب الأرض ، فإن عملية الاستملاك حسب قانون الطابو الفرنسي تجري بالتزوير الوجاهي حسب إفادة المختار.

ب ـ النضال الفلاحي:

إن تمركز الأرض في يد المتنفذين دفع بالفلاحين المظلومين الذين اغتصبت أرضهم إلى العمل لاسترجاع حقوقهم . وقد اتخذ عملهم أوجهاً عدة تدرجت من الشكل المنظم إلى الانتفاضات المفاجئة .

العمل المنظم تجلّى بانتشار فروع حزب التضامن الوطني ، الذي كان يرأسه فارس مشرف . وقد انتشرت فروعه بشكل جمعيات في بنت جبيل . وكان رئيسه فيها عبد اللطيف الحاج سليمان بزّي . وزاد عدده فيها عن ٣٠٠ عضو. وكذلك انتشرت فروعه في دبعال وجوية ودير قانون (كان رئيسه في هذه البلدة الشيخ أحمد قصير ثم الحاج عبدو قصير) . وأدخل ابراهيم طالب من معركة فرعاً إلى بلدته سنة ١٩٢٩ .انتسب إليه معظم فلاحي البلدة. واستطاع أهل معركة ، بعد أن أمّنوا سنداً سياسياً في الدولـة

(كان رشيد نخلة محافظ الجنوب ، وكان جان عزيز قائمقام صور آنذاك عضوين في هذا الحزب) عزل المختار آنذاك (كان أمّيّاً عمره ٨٥ سنة) وعينوا مكانه أحد الفلاحين (محمود أمين) . مامكنهم من استرجاع بعض المساحات عن طريق حكم أصدره القاضي العقاري آنذاك (حسن علوية).

وبالإضافة إلى حزب التضامن الوطني عرف جبل عامل في تلك الفترة الأفكار الاشتراكية . وهذا ما نستقرئه من الاتهام الذي ساقه آل الخليل ضد أهالي معركة سنة ١٩٢٩ إنه بلشفيك ومن أنصار صادق الحمزة.(١)

لم تقتصر التحركات الاجتماعية عند هذا الحد، بل تجاوزته إلى انتقادات ذهب ضحيتها كثير من الضحايا كما حدث في قرية بليدة ١٩٣٣ وفي بلدة بنت جبيل سنة ١٩٣٦.

٣ ـ الهجرة:

أمام واقع الفقر والقهر السياسي المسيطرين ، كان لا بد من تكون الهجرة أحد الحلول الممكنة أمام العاملين . لأن المواطن أصبح أمام أمرين: إما الموت جوعاً كما يموت غيره ، وإما الهجرة حيث يتبدى له أفق الحياة أوسع . وقد اتجهت الهجرات الأساسية إلى فلسطين . وذلك لجملة عوامل يمكن أن نعدّدها بما يلي:

١–مخطوطة حسن سليمان .

ـ ارتباط العملة الفلسطيني بالجنيه الاسترليني المستقر.

ـ حرية التنقل المسموح بها آنذاك بين جبل عامل وفلسطين.

ـ توفر ميادين العمل الناجمة عن مقاطعة اليد العاملة الفلسطينية لمرافق العمل اليهودية , مما أوجد حاجة ماسة لليد العاملة لكي تستعيض بها هذه المرافق عن اليد العاملة المحلية.

وفي فترة الثلاثينات اتسع نطاق الهجرة إلى الخارج . وكانت أميركا الجنوبية قبلة العامليين ، كما عند بقية اللبنانيين . وكانت هذه الهجرة من الاتساع بحيث أن اضطرت القنصليات المعتمدة في لبنان إلى وضع قيود على السفر إلى بلادها.

يقول أمين الغريب في مجلة الحارس :

" **في ٨ كانون الثاني أعادت مصلحة مرسيليا ١٩ لبنانياً كانوا قاصدين إلى أمريكا بسبب مرض في عيونهم**" . ثم اضافت ما يلي: "**أعلنت قنصلية الأرجنتين في بيروت أن الذين يهاجرون من بيروت إلى بلادها يجب التأشير على جوازاتهم عندها . وقنصلية جنوى لا تؤشر بعد الآن لهم عليها**" . (١)

١- أمين الغريب : مجلة الحارس ١٩٣٠ : ٥/ ٣٦١ .

خلاصة وتقويـم

كان الانتداب الفرنسي ، وضمُّ جبل عامل إلى دولة لبنان الكبير، حداً أوقف المدّ القومي والوطني ضد العامليين . كما عند بقية فئات الشعب في الاقطار الشامية . ولسنا نُلقي باللائمة كلياً في ذلك على الفشل في تحقيق مقررات مؤتمر وادي الحجير . لأن هذا المؤتمر لم يكن إلا رافداً صغيراً من الحركة العربية آنذاك . ولأن الفشل في تحقيق مقرراته لم يكُن إلا درجةً من درجات سُلّم هابط ، كان يحدد مسار الحركة العربية .

لكنّ ارتباط مؤتمر وادي الحجير بالمجرى السياسي العام لأحداث المنطقة لاينفي إطلاقاً البحث في الأسباب التي دفعت بالمؤتمر وجبل عامل إلى الوصول لطريق مسدودة أمام الاحتلال الفرنسي . لأن عدم البحث في هذه النقطة معناه تحميل الحركة العربية وزر الأخطاء والنواقص التي كانت تصيب مقتلاً من أي عمل سياسي محلي .

تولّى النافذون من الإقطاعيين في جبل عامل قيادة الحركة الاستقلالية في أحداث العشرين . ونظرة سريعة في تلك الأحداث التي مرّت تُظهر ان هؤلاء النافذين كانوا ينظرون تجاه واقع الاحتلال وواقع المقاومة المسلحة بمنظار حسابي . أو، بمعنى آخر، كانوا يتصرّفون حسبما تُمليه عليهم مصلحتهم الآنية الخاصة من خسارة أو ربح عاديين . فسياستهم العامة ترتكز في جلّ مظاهرها على الخضوع للحاكم ، بغض النظر عن

هويته سواء وطني أم أجنبي . ومسايرة أهدافها مهما كانت ظالمة أو نزيهة (١). وتصرف الإقطاعيين هذا ينسجم مع واقعهم الاقتصادي والاجتماعي ، فهم موضع الحفاوة عند المحتلين . وكلمتهم ومطالبهم لاتُرد عند الموظفين ، وعند رجال الدرك وقوى الأمن في خدمتهم ضد كل حركات لا تتفق ومصالحهم... هكذا فالتمايز الواضح في الحياة الاقتصادية والاجتماعية بين الإقطاعي والفلاح دافع حثيث لأن يحافظ الإقطاعي على هذا الواقع . من هنا فهو مستعد لأن يكون عين السلطات المحتلة التي ترصد تحركات الثوار

١ـ ينقل الشيخ علي الزين, في كتابه (مع التاريخ العاملي) /٧٦ عن موقف كامل بك ما يلي :

"...وعندما اضطربت الأحوال والأغراض بين قادة الثورة العربية في جبل عامل وقادة الفرنسيين في لبنان ، أخذ يساير قادة الثورة من جهة ، وقادة الفرنسيين من جهة. حتى إذا تحرّجت الأمور واختلّت الموازين ، وخاف أن يكون مسؤولاً من قبل الفرنسيين إذا هو أيّد الثوار عملياً ، وأن يكون مسؤولاً من قبل العرب إذا هو تظاهر مع الافرنسيين... انسلّ من رهطه خفية إلى سورية وفلسطين . وظل هناك يراقب سير الأمور عن كثب . إلى أن هدأت الاحوال في منطقة الانتداب الافرنسي ، وتمكن الافرنسيون من تركيز سياستهم الاستعمارية ، رجع إلى البلاد يعتذر من المفوض الافرنسي بأعذار لا تتفق مع الإيمان بالواجبات القومية والوطنية . ثم قضى ما بقي له من العمر يقولُ بقول غورو وترابو وفيفان ، وينهي عما نهوا عنه" .

وتتبع أخبارهم . لا بل إنه مستعد لحمل السلاح إلى جانب سلطات الاحتلال ضد هؤلاء الثوار. ومن ذلك الحرس الوطني الذي عزم كامل بك على تأليفه بالاتفاق مع شارينتين .

ارتكازاً على هذه الناحية ، نستطيع أن نرسم سبباً أول لفشل مقررات مؤتمر الحجير ، تحت وطأة الحملة الفرنسية . فهذه المقررات لم تكن ترجمةً صحيحةً لحقيقة المواقف الوطنيّة عند المؤتمرين ، بقدر ما كانت مُسايرةً للشعور العام ، والاندفاع الشديد عند الجماهير المُحتشدة في الوادي مؤيّدةً لحركة العصابات الوطنية ، التي كانت تُمثّل ، بالإضافة إلى أبعادها الوطنيّة ، أبعاداً اجتماعيّة ، تنبع من واقع التطارح الاجتماعي العالق في جبل عامل بين الاقطاع والفلاحين .

الذي سارع إلى كشف سطحية مقررات مؤتمر وادي الحجير الأحداثُ الطائفية بين المسلمين الشيعة والمسيحيين . المسيحيون بتحريض من فرنسا كانوا مهيئين لتقبّل أي إشاعة عن تجمع إسلامي. وهكذا كان خلو المؤتمر من المسيحيين السبب الثاني ، بالإضافة إلى النقطة الأولى ، المقتل في جسم المؤتمر.

***

في سعيهم لإنجاح المؤتمر, كان على ذوي النوايا الحسنة والعزائم الصادقة، وأصحاب المصلحة الحقيقة في التحرر من الاحتلال والوصاية،

أن يطرحوا أسئلةً مُحدّدةً ، فبل إقدامهم على خطوتهم تلك . تُحدـدُ لهم بــداية ونهاية تحركاتهم :

ما هي العوامل التي تحدد ظفر المؤتمر وإخفاقه؟

ما هي علاقة الفئات العاملة على الساحة السياسية في جبل عامل بالحكومة العربية وبسلطات الاحتلال؟

ما هي مواقفها؟

هل تختلف هذه المواقف باختلاف طبيعة البنية الاجتماعية والوقع السياسي لهذه الفئة أو تلك؟

هذه وغيرها اسئلة كان من الممكن أن ترسم المنهج الصحيح لسلامة العمل . لأن الخاسر الوحيد من فشل المؤتمر، كما مرّ في النتائج السياسية والاجتماعية والاقتصادية ، كان عامة العامليين . أمّا الإقطاع فقد استعاد في عهد الانتداب المكتسبات والامتيازات التي كانت له سابقاً .
